(الخلافةُ) اللفظيّةُ ... نظرة في اصطلاحه البلاغي

أ.م.د. هناء عبد الرضا رحيم الربيعي

كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة/ جامعة البصرة

Verbal Succession: A Neglected Rhetorical Term

Ass. Prof. Hana' Abdul-Ridha R. Al-Rubai'y

College of Education for Human Sciences / University of Basra

Abstract

Verbal succession is one of the concepts to be selected for terminological use, thought it did not receive the degree of propagation or publicity among researchers. The term is very rarely used not only in the field of rhetoric, but also in linguistic studies in general, and the concept is almost unknown to many scholars. What is more astonishing is that this term is used by Abdul Qahir Al-Jarjani (471 AH or 474 AH) – who is one of the pillars and founders of rhetoric – in his book "The Secrets of Rhetoric", referring to the rhetorical processes where the meaning of words is not understood directly, but indirectly through inferences via meanings of other words. These other words form terms that can be considered as the origin of other successive words. In other words, the words are created from meanings of other original words and replaced them.

Previous researchers focused only on meaning and the meaning of meaning and neglected those aspects beyond meaning. This is where researchers and scholars have ended their analyses and illustrations. Our task here is to finish what scholars have started in this area and demonstrate what is there beyond meaning and meaning of meaning, and this is where the novelty of the current paper lies

Keywords: Term, rhetoric, verbal succession

الملخص:

يعدّ مفهوم الخلافة اللفظيّة واحداً من المفاهيم المرشّحة للاستعمال المصطلحيّ، ولكنّه مع ذلك لم يستحصل درجة الشيوع لدى الباحثين، فهو مصطلح نادر الاستعمال في مجال الدراسات البلاغيّة، لا بل في مجال الدراسات اللغويّة عامّة؛ إذ أنّ مفهومه يكاد يكون مجهولاً بالنسبة للدارسين، وقد نستغرب أكثر لو علمنا أنّ هذا المصطلح استعمله عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ أو 474هـ)– أحد أعمدة علم البلاغة والمؤسّسين لها– في كتابه (أسرار البلاغة)، مشيراً به إلى الظواهر البلاغيّة التي لا يتأتّى استعمال الألفاظ فيها بشكل مباشر– من خلال الدلالة على معانيها– وإنّما من خلال الاستدلال على المعاني بمعانٍ أخر، تُوصل إلى تشكيل ألفاظ تكون بمثابة الأصل لمن سيؤدي دور (الخليفة) عنها لاحقاً، من خلال عمليّة استدلال عقليّة توصل إليها، أو بمعنى آخر: ألفاظٌ تُولد من رحم معانٍ دلّت عليها ألفاظ أصليّة، فنابت منابها في أداء المعنى.

وتأتي جدّة هذا الموضوع في أنّ الباحثين ركّزوا على قضيّة المعنى ومعنى المعنى عند الجرجانيّ، ولكن ما بعد المعنى ماذا سيكون؟ وإلى ماذا سينتهي؟ هنا توقّف الدارسون عن التحليل أو التوضيح، ومهمّتنا– في هذا البحث– أن نكمل ما بدأه العلماء في هذا المجال، ونوضّح ماذا يكون ما بعد المعنى ومعنى المعنى؟

كلمات مفتاحيّة: مصطلح، البلاغة، الخلافة اللفظيّة.

المقدمة:

يعدّ مفهوم الخلافة اللفظيّة واحداً من المفاهيم المرشّحة للاستعمال المصطلحيّ، ولكنّه مع ذلك لم يستحصل درجة الشيوع لدى الباحثين، فهو مصطلح نادر الإستعمال في مجال الدراسات البلاغيّة، لا بل في مجال الدراسات اللغويّة عامّة؛ إذ أنّ مفهومه يكاد يكون مجهولاً بالنسبة للدارسين، وقد نستغرب أكثر لو علمنا أنّ هذا المصطلح استعمله عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ أو 474هـ)– أحد أعمدة علم البلاغة والمؤسّسين لها– في كتابه (أسرار البلاغة)، مشيراً به إلى الظواهر البلاغيّة التي لا يتأتّى استعمال الألفاظ فيها بشكل مباشر– من خلال الدلالة على معانيها– وإنّما من خلال الاستدلال على المعاني بمعانٍ أخر، تُوصل إلى تشكيل ألفاظ تكون

بمثابة الأصل لمن سيؤدي دور (الخليفة) عنها لاحقاً، من خلال عمليّة استدلال عقليّة توصل إليها، أو بمعنى آخر: **ألفاظٌ تُولد من رحم معانٍ دلّت عليها ألفاظ أصليّة، فنابت منابها في أداء المعنى.**

ألفاظ (2) ← معاني (2) ← معاني (1) ← ألفاظ (1)

وتأتي جدّة هذا الموضوع في أنّ الباحثين ركّزوا على قضيّة المعنى ومعنى المعنى عند الجرجانيّ، ولكن ما بعد المعنى ماذا سيكون؟ وإلى ماذا سينتهي؟ هنا توقّف الدارسون عن التحليل أو التوضيح، ومهمّتنا– في هذا البحث– أن نكمل ما بدأه العلماء في هذا المجال، ونوضّح ماذا يكون ما بعد المعنى ومعنى المعنى؟

لقد أثار هذا المصطلح في ذهني–عند اطّلاعي عليه– مجموعة من التساؤلات، استدعت منّي البحث عنه في كتب البلاغة ومعاجم المصطلحات البلاغيّة للوقوف على مفهومه ولكن من دون جدوى، فدفعني الأمر إلى تتبّع كتب التراث البلاغيّ ولاسيّما كتاب الجرجانيّ– أسرار البلاغة– مرّات أخر، وتتبّع الشواهد التي استدلّ بها على النصوص ضمن مفهوم هذا المصطلح، والنظر في تحليلها، وما هو مقصوده منها، فكان أن تجلّت لي بعد هذا التتبّع رؤية عامّة – استطاعت أن تصفه– ما كان لها أن تتكشف بسهولة بسبب عبارات الجرجانيّ المكثّفة– مثلما هي عادة العلماء القدماء–، ثمّ قمتُ بتطبيق هذه الرؤية على شواهد أخرى وردت في الكتاب على وفق المفهوم الذي طرحه، فكان أن انكشفت لي حدود مفهوم (الخلافة) اللفظيّة بشكل مباشر–مصرّح به–، أو بشكل غير مباشر– مستمدّ من تحليله للتطبيقات المماثلة–، ومثلما يبدو لنا فإنّ الجرجانيّ حاول أن يؤسّس للمصطلح الذي ذكره في كتابه عن قصد، تاركاً الباب مفتوحاً لمن يريد البحث عنه، فكانت ثمرة هذه السياحة مع التراث هذا البحث الذي يؤسّس لمصطلح لم ينتبه إليه الدارسون قديماً أو حديثاً، ولم يذكروه في كتاباتهم أو يشيروا إليه من قريب أو بعيد، أو يتحدّثوا عن مفهومه، وقد خصّصته بالدرس البلاغيّ كوني وجدته في كتاب تأسيسيّ مهمّ مثل كتاب (أسرار البلاغة)، لعالم عُرف بجهده البلاغيّ القيّم، وكثُرت الدراسات حوله وحول مؤلّفاته في كثرة كاثرة، واصفة له بأنّه الإمام المجتهد المبرّز، الذي سبق إلى ما لم يخطّه أحدٌ قبله[1]، وقد كانوا محقّين في ذلك

– مواضع ورود المصطلح:

ورد المصطلح في موضعين من كتاب الجرجانيّ (أسرار البلاغة)، الأول منهما كان يتحدّث فيه عن الاستعارة المفيدة وتقسيماتها، إذ ورد المصطلح في أثناء حديثه عن القسم الثاني من الإستعارة الواقعة في الأسماء، والموضع الثاني كان يتحدّث فيه عن الفرق بين التشبيه والاستعارة، ومتى يستدعي الأمر أن نقول إنّ في الكلام تشبيهاً، ومتى يستدعي أن نقول إنّ فيه استعارة، وقد تبدو الرؤية العامّة لموضعيّ ورود المصطلح وكأنّها تتناقض في دلالتها مع بعضها بعضاً، ولكن عند التدقيق نجد أنّهما يدلّان على مفهوم واحد ومتكامل.

ففي الموضع الأوّل يتحدّث الجرجانيّ عن الاستعارة المفيدة، إذ يقول: ((إعلم أنّ كلّ لفظة دخلتها الإستعارة المفيدة، فإنّها لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً، فإذا كانت اسماً فإنّه يقع مستعاراً على قسمين: أحدهما: أن تنقله عن مسمّاه الأصليّ إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه، وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف، وذلك قولك ((رأيتُ أسداً)) وأنت تعني ((رجلاً شجاعاً))، و((عنت لنا ضبية)) وأنت تعني امرأة، و((أبديتُ نوراً)) وأنت تعني هدى وبياناً وحجّة وما شاكل ذلك، فالاسم في هذا كلّه كما تراه متناولٌ ((شيئاً معلوماً)) يمكن أن يُنصّ عليه فيُقال: إنّه عُني بالاسم وكُني به عنه ونُقل عن مسمّاه الأصليّ فجُعل اسماً له على سبيل الإعارة والمبالغة في التشبيه))[2].

1) ينظر على سبيل المثال: مقدّمة محقّق أسرار البلاغة، محمود محمد شاكر: 4، البلاغة العربيّة بين الناقدين الخالدين: عبد القاهر الجرجانيّ وابن سنان الخفاجي، د. عبد العاطي غريب علي علام: 11، التفكير النقدي عند العرب، حمّادي صمّود: 75.
2) أسرار البلاغة: 44.

والنوع ((الثاني: أن يؤخذ الاسم على حقيقته، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه، فيُقال: هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له، وجُعل خليفةٌ لاسمه الأصليّ ونائباً منابه))[1].

ففي النوع الأوّل من الاستعارة المفيدة يكون الإدّعاء واقعاً في اللفظ ذاته، ومجال الاستعارة حاصل بكلّ وضوح؛ لأنّ استدعاء المعنى الأصليّ للفظ ممكن لشيوع استعمال الألفاظ ووقوعه فيما بين المستعملين لها. أمّا النوع الثاني فمجال التأويل فيه يحتاج إلى تدقيق وتفكير عقليّ؛ لأنّه ليس له أصل لفظيّ يمكن الرجوع فيه إليه بل يستند إلى التركيب الجمليّ الذي شكّله، وفي هذا النوع من الاستعارة يظهر مجال تطبيق مفهوم الخلافة اللفظيّة واضحاً عكس النوع الأوّل.

والملاحظ في كلام الجرجانيّ أنّه يركّز على أنّ الخلافة تحصل في النوع الثاني من الاستعارة حيث يحصل التأويل، في حين أنّه سكت عن النوع الأوّل ولم يذكر آليّة حصول الأمر من باب أنّ عرف الاستعمال قد أسهم في حدوث إدّعاء النقل للفظ ولم يحتج إلى تفكير عقليّ دقيق، أو ربّما قصد بذكره الخلافة في النوع الثاني أنّها سارية الحصول في النوعين ولكنّها تحتاج إلى تعمّق وتدقيق في النوع الثاني أكثر من النوع الأوّل– وهو ما نذهب إليه–، ودليلنا يتّضح عند حديث الجرجانيّ في الموضع الثاني الذي ورد فيه مصطلح الخلافة، وذلك عندما تحدّث عن الفرق بين الاستعارة والتشبيه في الكلام، إذ يقول: ((... في الاستعارة الصحيحة ما لا يحسن دخول كلم التشبيه عليه. وذلك إذا قوى الشبه بين الأصل والفرع، حتّى يتمكّن الفرع في النفس بمداخلة ذلك الأصل والاتحاد به، وكونه إيّاه. وذلك في نحو ((النور)) إذا استعير للعلم والإيمان، و((الظلمة)) للكفر والجهل. فهذا النحو لتمكّنه وقوة شبهه ومتانة سببه، قد صار كأنّه حقيقة))[2]، فما يريد الجرجانيّ قوله في هذا النصّ إنّ الاستعارة تكون واقعة في الكلام على الرغم من أنّ أصلها قائم على التشبيه عندما يقوى اتّحاد المشبّه بالمشبّه به، عندها يختفي استعمال أداة التشبيه وتتمّ إعارة المشبّه به للمشبّه، وهذه القوّة جاءت من وضوح استعمال اللفظ في العُرف ودلالته على ما استعير له، أمّا عندما يصبح العنصر الرابط بين طرفيّ التشبيه غامضاً وبعيداً عن الأذهان عندها يتوجّب ذكر طرفيّ التشبيه مع استعمال أداته الدالّة على وقوعه، يقول الجرجانيّ: ((...كلّما كان مكان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف، كان الاتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال))[3].

وهذا التوضيح للفرق بين الاستعارة والتشبيه في الكلام عند الجرجانيّ ليس هدفنا وإنّما هدفنا أين وقعت الخلافة اللفظيّة فيما سبق ذكره، يقول الجرجانيّ: ((والسبب في ذلك أنّ إطّراح ذكر المشبّه والاقتصار على اسم المشبّه به، وتنزيله منزلته، وإعطاءه الخلافة على المقصود، إنّما يصحّ إذا تقرّر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له، وتستبينه في الدلالة))[4]، وهذا النصّ يجيب على ما سبق ذكره من أنّ الجرجانيّ غضّ النظر عن وقوع الخلافة اللفظيّة في النوع الأوّل من الاستعارة المفيدة الواقعة في المفرد مكتفياً بذكر المصطلح في النوع الثاني القائم على التأويل، فجاء هذا النصّ ليكمّل الفكرة وهي أنّ الخلافة تقع أيضاً في المفرد ولكن لشيوع الاستعمال تصبح الألفاظ وكأنّها جارية على الحقيقة، فهي وإن كانت تحتاج إلى التأويل إلا أنّ عرف الاستعمال قد أشاع دلالة اللفظة المستعارة على أصلها الذي انطلقت منه فصارت العلاقة الرابطة بينهما معروفة للمتلقّي وكأنّها حقيقة عند استدعائها في الذهن، في حين أنّ استعارة المشبّه به ووضعه موضع المشبّه ليكون خليفة عنه لا بدّ لها من علاقة رابطة بين اللفظ الأصليّ واللفظ الذي أستعيرت له، هذه العلاقة يكشفها سياق الكلام الداعم لدلالة اللفظ وليس اللفظ نفسه.

والملاحظ هنا أنّ الجرجانيّ يقرّ بقضيّتين مهمّتين سنستوضحهما بتفصيل أكثر خلال البحث، وهما:

1– إنّ معنى التخييل العقليّ ممكن الوقوع في اللفظ المفرد ولا يقتصر على التركيب.

2– إنّ الخلافة اللفظيّة لا تقع إلا في الأمور العقليّة لإنّها تحتاج إلى التأويل الذهنيّ.

3–

1) المصدر السابق: 44، 45.
2) أسرار البلاغة: 332.
3) المصدر السابق: 333.
4) المصدر السابق: 334.

- مفهوم مصطلح (الخِلافة) اللفظيّة:

للبدء في توضيح مفهوم أيّ مصطلح لا بدّ من أن ننطلق من المعنى اللغويّ المؤسّس له، فالخَلْف: ضدّ القُدّام، وخَلَفَ: ضدّ تقدّم وسلف، والخِلاف: مخالفة الشيء لأصله، وتخلّفَ فلانٌ فلاناً: إذا تأخّر عنه وجاء خلف آخر، وقام مقامه، ومصدره الخِلافة بالكسر، والخليفة: مَنْ استخلف مكان مَنْ قبله، وقام مقامه، والخالفة: الأمّة الباقية بعد السالفة، وإنّما سميّت خلافة لأنّ الثاني يجيء بعد الأول قائماً مقامه [1]

فالأصل اللغويّ لهذا المصطلح مرتبط بالمصدر المأخوذ من مادّة: (خَلَفَ)، يُقال: (خلَفَ فلانٌ فلاناً) إذا كان خَلِيفَتَهُ، ويُقال: (خلَفَهُ في قومهِ خِلافَةً) بالكسر وليس (خَلافَةً) بالفتح التي تعني: الفاسد، والرديء الأحمق، وهو ما لا يُحتمل ورود معناه في السياق الذي وردت فيه اللفظة من كلام الجرجانيّ المذكور آنفاً. وقد ورد في التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(الأعراف/ 142). وخَلَفْتُهُ إذا جئتُ بعده. والخليفة: الذي يُسْتَخْلَفُ ممّن قبله، والجمع خلائف، جاؤوا به على الأصل مثل: كريمة وكرائم، وهو الخليف والجمع خُلَفاء[2].

وهذا المعنى اللغويّ هو المنطلق لمصطلح (الخلافة) اللفظيّة الذي يعني أنّ هنالك لفظاً يخلف آخر من خلال آليّة يتمّ اعتمادها للوصول إلى قصد الكلام، وبما أنّ التقديم اللغويّ للمصطلح يمهّد للوقوف على المعنى الإصطلاحي فإنّنا سنؤصّل له من خلال ما وقفنا عليه من نماذج تطبيقيّة وجدناها في تراث الجرجانيّ البلاغيّ مرتبطة بالمصطلح المعنيّ بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لتعطينا صورة عامّة عن مفهومه إصطلاحاً، فيكون معناه: لفظ متكوّن عن معنى متخيّل في النفس، ليس له شيءٌ يُحسّ ولا ذات تُتحصّل، يقوم مقام معنى اللفظ الأصليّ ويحلّ محلّه معنويّاً، وهو مبنيّ على تركيب جمليّ جارٍ على الحقيقة.

وهذا المصطلح يرتبط بالتخصيص اللفظيّ، فهو بمثابة الخليفة للفظ الأصليّ، يحلّ محلّه، ويأخذ مكانه في المعنى، ولكنّه لا يكون خليفة عن لفظ من خلال اللفظ ذاته، وإنّما يكون خليفة عن اللفظ من خلال معناه، فالخلافة للشيء لا تعني بالضرورة أن يكون الشيء مماثلاً للفظ الأصليّ في صيغته وشكله- وهو ما قصده الجرجانيّ-، فإذا احتمل الدلالة على اللفظيّة فسيكون مماثلاً للفظ الأصليّ في جنسه وفي نوعه وحينئذ لن يكون خليفة عنه بالمعنى المراد، فالكلام إذا كان جارياً على الحقيقة، ولا تتحقّق فيه مخالفة للأصل الذي انبعث منه فليس هناك خلافة أصلاً، ومردّ ما حصل في القرآن من مخالفة الألفاظ لدلالات معانيها الأصليّة بالشكل الذي أعجز العرب عائد إلى علم البيان الذي يؤسّس له الجرجانيّ في أسراره ودلائله، وهو الخروج باللفظ عن دلالته الأصليّة[3].

ومصطلح (الخلافة) مصطلح شائع في البيئة الاسلاميّة منذ زمن وفاة الرسول الكريم، إذ كان معروفاً في ميدان موضوعات العقيدة، فهو مصطلح سياسيّ دينيّ، دلّ على النظام العام للحكم المقرّر شرعيّته، وكان مسوّغاً للخلاف الفكريّ حول أحقيّة مَنْ يحكم

1) ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيديّ: 263، 264، ومفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهانيّ: 294.
2) ينظر: كتاب العين: 4/ 266، 267، معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا: 2/ 210، ومفردات ألفاظ القرآن: 294، أساس البلاغة، الزمخشري: 200.
3) ينظر: دلائل الإعجاز: 9.

الأمّة الإسلاميّة، ومثاراً للجدل الواقع بين التيارات الفكريّة بحسب تفسيرها لهذه الأهليّة؛ وربّما يكون الجرجانيّ متأثراً بالجدل الذي دار حول هذا المصطلح، وبشيوع مفهومه بين التيّارات الفكريّة آنذاك، فاستحضره في ميدان الدراسات البلاغيّة.

- الفرق بين مصطلح (الخلافة)، ومصطلح (النيابة):

ورد لفظ (خليفة) في كلام الجرجانيّ وقد عُطف عليه مصطلح (النيابة)، ((**هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له، وجُعل خليفة لاسمه الأصليّ ونائباً منابه**))، ومصطلح (النيابة) نُسب إلى الجرجانيّ أيضاً وقيل أنّه أوّل من وضعه[1]، وهذه الالتفاتة من الجرجاني من عطف المصطلحين على بعضهما بعضاً تشير إلى وجود توافقات محتمة بينهما تتيح له هذا العطف، فضلاً عن وجود افتراقات، فليس بالضرورة أن يدلّ مصطلح (النيابة) هنا على ما دلّ عليه في ميادين البحث النحويّ والجرجانيّ هنا يتكلّم عن استعارة وجواز لمعنى إلى معنى آخر على وجه التأويل.

وعند إجراء مقارنة بين المصطلحين وتمثّل الصورة التي تكشفها التطبيقات التي وجدناها في تراث الجرجانيّ عن (الخلافة) اللفظيّة و(النيابة) ومقارنتهما بما توصّل إليه النحاة من مفهوم (النيابة) سنتوصّل حتماً إلى توصيف واضح للمصطلحين؛ فالوقوف على ما هو معروف وواضح من المؤكّد سيسهم لاحقاً في الوقوف على ما هو غير معروف وغير واضح، ومثلما نعرف فإنّ مفهوم (النيابة) يشكّل مفهوماً معروفاً وواضحاً بالنسبة للباحثين والدارسين في مجال علم النحو لذا ستكون المهمّة سهلة فيما لو انطلقنا من (النيابة) إلى (الخلافة)، فضلاً عمّا سنتوصل إليه من الوقوف على المفهوم الذي قصده الجرجانيّ في مؤلّفاته عن (النيابة)، وهل كان محقّاً في عطفه على مفهوم (الخلافة) اللفظيّة أو كان قاصداً لمفهوم آخر يختلف عمّا استقرّ عليه عند النحاة فيما بعد؟!.

والذي يبدو لنا من خلال إجراء المقارنة بين مفهوم مصطلح (النيابة)[2] عند النحاة، مقابلاً لمفهوم الخلافة اللفظيّة[3] عند الجرجانيّ أنّ (النيابة)- النحويّة- تتضمّن مفهوم الخلافة الإعرابيّة[4]، والملاءمة الشكليّة، وعدم الحاجة إلى علاقة رابطة تربطه مع الأصل، أو قرينة مانعة، عكس المفهوم الذي دلّ عليه مصطلح (الخلافة) اللفظيّة، فهو إلى الجانب البيانيّ أقرب كونه يعتمد على التأويل والمجاز وليس الحقيقة، ومعنى التركيب الجمليّ الذي ينطلق منه اللفظ هو الذي يتقارب مع معنى اللفظ الأصليّ، فضلاً عن وجود علاقة رابطة، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان الجرجانيّ قاصداً لمفهوم (النيابة) الذي استقرّ مفهومه عند النحاة لاحقاً وكان مسوّغاً له لعطفه على مصطلح (الخليفة) ومفهوم الخلافة اللفظيّة؟، أو أنّ ما قصده منه غير هذا المفهوم؟ وللإجابة على هذا السؤال نحن بحاجة إلى العودة إلى تراث الجرجانيّ للوقوف على مفهوم (النيابة) عنده، ومن ثمّ مقارنته مع ما ذكرناه من مفهومه عند النحاة، ومفهوم الخلافة اللفظيّة عند الجرجانيّ.

والذي توصّلنا إليه من خلال مراجعة تراث الجرجانيّ- وهو أمر لافت للانتباه- إنّه لا يستعمل مصطلح (النيابة) للدلالة على ما ينوب عن الفاعل عند البناء للمجهول مطلقاً- مثلما هو الحال عند النحاة-، وإنّما يستعمل مصطلح (البناء للمفعول به)[5] للإشارة إلى هذا الأمر، ومن دون أن يذكر أي شيء يتعلّق بالنيابة عن الأصل[6]، فضلاً عن أنّ مفهوم (النيابة)[1]- عنده- له خصوصيّته التي تتقارب مع مفهوم الخلافة اللفظيّة ممّا سوّغ له الأمر عطف أحدهما على الآخر.

---

1) ذهب الباحث صباح حسين محمد إلى أنّ الجرجانيّ هو أوّل من استعمل مصطلح النيابة في كتابه (العوامل المئة)، وقد ردّ الدكتور يوحنا مرزا الخامس هذا الرأي معللاً ذلك بعدم وروده في هذا الكتاب (ينظر: المصطلح النحويّ عند ابن خالويه (رسالة ماجستير): 25- 26، 312، وموسوعة المصطلح النحويّ: 695، 696)، وعند الرجوع إلى مؤلّفات الجرجانيّ وجدنا المصطلح وارداً عنده(ينظر: العوامل المائة: 32، أسرار البلاغة: 44، المقتصد في شرح الإيضاح: 1146) وبذلك يتأكّد رأي الباحث صباح حسين محمد من أنّ الجرجانيّ استعمل المصطلح ولكن ليس في كتاب (العوامل المئة) فقط، بل في مصادر أخرى أيضاً، ومن وجهة نظرنا فإنّ مفهومه له يختلف عمّا قصده النحاة.

2) اعتمدنا في الوصول إلى توصيف مصطلح (النيابة) على مجموعة من الكتب النحويّة، منها: المقتضب، المبرّد: 4/ 50، الكافية في النحو، ابن الحاجب: 1/ 83، النحو الوافي، عباس حسن: 2/ 107، بناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف: 128.

3) أخذنا معلومات الخلافة اللفظيّة من أقوال الجرجانيّ وتطبيقاته التي سنوضّحها لاحقاً عبر توصيف المصطلح وبيان مفهومه.

4) أشار بعض النحاة إلى أنّ النائب في الكلام يخلف المنوب عنه في الحركة الإعرابية (ينظر: كتاب سيبويه: 108/1، حاشية الصبان: 1/ 61).

5) ينظر فيما أوضحناه بشأن هذا المصطلح كتاب الجرجانيّ: المقتصد في شرح الايضاح، في الصفحات: 344، 345، 349.

6) ينظر: المصدر السابق: 344.

– **حدود مفهوم (الخلافة) اللفظيّة:** من خلال متابعة مواضع التطبيقات ومقتطفات من أقوال الجرجانيّ حول متعلّقات ما استدلّ به من ظواهر ينطبق عليها مفهوم هذا المصطلح، وما ذكرناه سابقاً من تعريف إصطلاحيّ له، ومن خلال نتائج المقارنات التي أوضحناها في الموضوع السابق سنحاول أن نضع الحدود المفاهيميّة لمصطلح (الخلافة) اللفظيّة، والتي سنعتمد عليها للتأسيس له، وهذه المفاهيم تنبني على المحاور المؤلّفة للتعريف بالمصطلح، مع ملاحظة أنّنا سنبتعد عن متابعة الترتيب نفسه الذي استعرضناه للمحاور في التعريف الاصطلاحيّ؛ لأنّ بعض هذه المحاور تحتاج إلى التقديم والتمهيد لتنبني عليها محاور لاحقة، وهي كالآتي:

- **يقوم مقام معنى اللفظ الأصليّ ويحلّ محلّه معنويّاً:**

إنّ اللفظ – ضمن الخلافة اللفظيّة– يؤخذ من لفظ جارٍ على حقيقته، ويوضع موضعه[2]، فاللفظ الأصليّ جارٍ على حكم طبيعته الوضعيّة، ولكن ائتلافه ضمن تركيب جمليّ، هو الذي يتيح له أن يُحدث المعنى البلاغيّ من هذا التركيب، والاستدلال الكاشف عن هذا الأمر هو أنّ الألفاظ المتولّدة بيانيّاً لا ترجع إلى أصلها في حقيقتها اللفظيّة وإنّما يمكن إرجاعها إليها من خلال معانيها الكاشفة عنها، فالمعاني الأُول من التراكيب ليست هدف الجرجانيّ في علم البلاغة، وإنّما هدفه معنى المعنى أو المعنى المخصوص– مثلما يسميه– الذي تتولّد من خلاله ألفاظ تؤدي دور الخليفة عن الألفاظ الأصليّة التي ولّدت المعاني، وربّما لهذا السبب أُطلق الجرجانيّ مصطلح (الخليفة) الذي يدلّ في معناه على أنّ المعنى في هذه الحالة هو ما يخلف معنى الألفاظ الأصليّة من خلال ارتباطها في نسق معنويّ منظّم أسوة بتنظيم اللفظ في الكلام وارتباطه ببعضه بعضاً.

وهذا الموقف من الظواهر البلاغيّة يمثّل موقف الجرجانيّ عامّة، من الوصول إلى معنى المعنى، أمّا المعاني الأول فهي من اختصاص علم النحو[3]، فليس قصد البلاغيّ في عمله هو البحث عن الدلالة الوضعيّة للألفاظ والوصول إلى معاني النحو في الكلام من خلال الاستدلال باللفظ على المعنى، وإنّما مهمّته هي الاستدلال بالمعنى الأوّل على المعنى الثاني والثالث وهكذا اعتماداً على قصد المتكلّم وضرورات المقام ومتطلّباته. ويمكن أن نوضّح ما يقصده الجرجانيّ من اعتماد الألفاظ على حقيقتها الأصليّة والانتقالات التي تمرّ بها للوصول إلى مفهوم الخلافة اللفظيّة بالشكل الآتيّ:

وما نريد أن نوضّحه من خلال هذا المخطّط أنّ هنالك خلافة لفظيّة حصلت في الكلام، ولكنّها مرّت عبر تنقّلات المعنى، فإذا ما نظرنا إلى مفهوم الخلافة من خلال الكلام الظاهر فإنّنا سنلحظ أنّه في الواقع يستدعي تركيبين جمليّين، الأوّل: تركيب جمليّ يتألّف من ألفاظ ذات دلالات وضعيّة مفيدة وهو تركيب غير ظاهر في الكلام، والثاني: تركيب جمليّ ذهنيّ انبنى على ترابط معنويّ حاصل بين بعض الألفاظ مكوّناً جملة معنويّة حاصلة في الذهن، استدعت بدورها ألفاظاً جديدة لا تُشابه الألفاظ الأصليّة للتركيب الأوّل، فهي لا تعود إليها فيما لو طُلب الأصل وإنّما تعود إلى تراكيب معنويّة ناشئة عن التركيب الجمليّ الأوّل، وهنا حصلت الخلافة اللفظيّة، إذ استخلفت الألفاظ الظاهرة الألفاظ الذهنيّة الأصليّة – ذات الدلالات الوضعيّة– عبر تنقّلات المعنى.

1) ينظر على سبيل المثال: المقتصد: 89، 96، 293.
2) ينظر: أسرار البلاغة: 44.
3) ينظر: أسرار البلاغة: 72.

وقد استعنّا بالتقسيم الثلاثي للتراكيب الجمليّة للتوضيح فقط من باب أنّ الكلام المفيد يتألّف من ثلاثة أقسام، وإلا فليست الجمل الإسناديّة تبقى محافظة دائماً على تركيب ثلاثيّ وإنّما الغالب عليها هو التركيب الثنائيّ، مثلما هو الحال في الجمل الإسميّة.

أمّا كيف تتمّ الخلافة اللفظيّة للمعاني فصرّح الجرجانيّ بها مراراً وتكراراً في أكثر من موضع من كتبه، وهي ((...أنّك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنّك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتّب لك بحكم أنّها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأنّ العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النطق))[1]، وهذا الأمر في تبعيّة الألفاظ للمعاني ينطبق في حال المواضعة، وفي حال المعنى، ومعنى المعنى، حيث المعاني تترتّب في الذهن لتستدعي لاحقاً الألفاظ الدالّة عليها، وتركيز الباحثين وقع على تطبيق الفكرة التي طرحها الجرجانيّ على الحالة الأولى حيث الحقيقة، ولكنّهم لم يركّزوا على ارتباط اللفظ بقضيّة المعنى ومعنى المعنى بينما فكرة الجرجانيّ تحتمل ذلك لا بل إنّ محور فكرته في مؤلّفاته تركّز على المعاني الثانية والثالثة فكيف لا تنطبق فكرة المعنى النفسيّ المستدعي للفظ عليها؟!

- **مبنيّ على تركيب جمليّ جارٍ على الحقيقة:**

لاحظنا في الموضوع السابق أنّ الخلافة اللفظيّة لا تحصل إلا بالاعتماد على تركيب جمليّ يوصل إلى معنى مفيد، والجرجانيّ يرى أنّ الترتيب النحويّ القائم على الرتب المحفوظة هو الأساس في علم الإعراب، هذه الرتب تبقى محافظة على موقعها الإعرابيّ حتى لو تقدّمت في الكلام أو تأخرت فهي ليست مجال اهتمامه عند الحديث عن البلاغة؛ لأنّها قائمة على الرتب المخصوصة، وهذه الرتب لا تلتزم بالموقع الثابت– مثلما هو الحال في الرتب المحفوظة في النحو– وإنّما تلتزم بما يستوجبه الفنّ البلاغيّ وما يحقّقه من غرض معنويّ، ((وهذا الحكم– أعني الاختصاص في الترتيب– يقع في الألفاظ مرتّبة على المعاني المرتّبة في النفس، المنتظمة فيها على قضيّة العقل. ولا يتصوّر في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصيص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركّبة وأقسام الكلام المدوّنة))[2].

وبما أنّ الخلافة اللفظيّة تعتمد على تأويل المعنى في الذهن سواء كان عائداً إلى مفرد أو تركيب؛ لذا سيكون من الطبيعيّ وقوع الاعتماد على النظام الجمليّ في الكلام، ومردّ هذا الاعتماد في حقيقته يعود إلى أنّ جري الكلام على غير الحقيقة لا يحصل في الألفاظ المفردة المستقلّة غير المؤلّفة، فالأصل في الحكم على الكلام بجريه على الحقيقة أو المجاز هو النحو به نحو العقل وهذا الأمر لا يحصل إلا في الجمل المفيدة[3]، والكلام كلّما كان أوغل في كونه عقليّاً وبعيداً عن الحقيقة كلّما كانت الحاجة إلى الجملة فيه أكثر، وقد يصل التأليف– عندها–إلى جملتين أو أكثر[4].

- **لفظ متكونٌ عن معنى متخيّل في النفس:**

بما أنّ المصطلح المبحوث عنه مبنيّ على معنى يتمّ تأوّله، ولا يُدرك إلا في العقول فإنّ الجرجانيّ وصف وضع المعنى فيه بأنّه لا يتعدّى التخيّل والوهم والتقدير في النفس، فالمعنى لا يتبيّن إلا بعد أن نخرق إليه ستراً، ونُعمل فيه تأمّلاً وفكراً [5]، فهو محتمل الدلالة على وفق ما يذهب إليه المتلقّي اعتماداً على سياق الكلام، والمتلقّي الفصيح النبه هو القادر على كشف أستار المعاني والوصول إلى لبّها وجوهرها، وهو أمر لا يتوافر لكلّ متلقٍ للكلام، وإنّما للمتلقّي الفصيح والبليغ، ومن هنا يأتي تمايز وظيفة البيان العالي، الذي تتجاوز وظيفته وظيفة الكلام العادي؛ لكون معلّمه الأوّل هو الله سبحانه وتعالى، إذ قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَن ۞ عَلَّمَ الْقُرْآن ۞ خَلَقَ الإنسَان ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَان ﴾(الرحمن/ 1– 4)، فلولا البيان ((... لم تكن لتتعدّى فوائد العلم عالمه، ولا صحّ من العاقل

1) دلائل الإعجاز: 54.
2) أسرار البلاغة: 5.
3) ينظر: المصدر السابق: 415.
4) ينظر: أسرار البلاغة: 108.
5) ينظر: المصدر السابق: 46، 47، 92.

أن يفتُق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطّلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوت القضيّة في موجودها وفانيها))[1]، فللعقول معانيها التي تنفرد بها، وللخواطر قوى لا يكشف عنها إلا من خبر دقائق اللغة، وطُبعت في قريحته، ومزجت مع إحساسه وطبعه مزجاً؛ ولهذا فإنّ هذه المعاني العميقة والدقيقة التي قد لا نراها إلا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوي العقول الكاملة لا يستطيع أن يفهمها ويقف عليها إلا اللبيب اليقظ الذي يرتفع عن طبقة العامّة، أمّا ما يفهمه عامّة الناس ويتساوون في فهمه مع المضعوف المغفّل فهو ظاهر الأمر لا يحتاج إلى تأويل[2].

فضلاً عن ذلك فإنّ المعنى كلّما كان أخفى وأغمض، ويحتاج إلى قدر من التأمّل وفضل رويّة ولطف فكرة في استخراجه كلّما كان أقوى في التأثير[3]، فهو لا يشبه المعنى الذي لا يحتاج الى تأويل وتفكير، الذي يتساوى فيه العامّة في الفهم.

ومعنى الوهم عند الجرجانيّ هو ما يكون وجوده ممتنعاً أصلاً حتّى لا يمكن تصوّره إلا في الذهن[4]، وهو على نوعين: **((ضرب يستحكم حتى يبلغ أن يصير اعتقاداً. وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ، ولكنّه شيء يجري في الخاطر))**[5]، وربّما يعود هذا التقسيم إلى الجذور من موادّ الألفاظ المكوّنة لصورة هذا الوهم، ومن هنا يأتي التخيّل الذي لا غنى عنه لتصوّر معاني ما نريد فهمه عبر الخلافة اللفظيّة؛ كي يتمّ ترجمة ما نتصوّره في الذهن إلى معانٍ يدركها العقل لاحقاً، فالوهم بجانبيه قائم على أمور غير موجودة في أرض الواقع على الانفراد، ولكنّها تتشكّل في الذهن، وتُحسّ عقلاً؛ ليُعاد انتاجها في صورة لفظيّة موائمة لها، ممكن التأثّر فيها وإحداث المبالغة المطلوبة منها.

- **ليس له شيءٌ يُحسّ ولا ذات تتحصّل:** وهذا الأمر هو مرجع جماليّة الغرض البلاغيّ الذي يستفيد منه هذا المصطلح للوصول إلى المعنى، وذلك أنّ إثبات الأشياء المرادة من الكلام لا تتم بالرجوع إلى الأصل الذي انطلقت منه المعاني، وإنّما في المعاني الغامضة التي تختفي خلف المعاني الواضحة، ولذا فهي ليست لها ذوات يمكن أن توصل إليها مباشرة، ولا يمكن تذوّقها والإحساس بها من خلال الحوّاس، وإنّما يتوصّل إليها من خلال العقل، فمن دونه لا يمكن تفسير انتقالات المعاني للوصول إلى الألفاظ.

ويمكن تفسير إنعدام ذات الألفاظ التي لا يمكن تحصّل المعاني من خلالها مباشرة من خلال الوقوف على معاني الكلام، فهي نوعان:

– الأوّل: معنى موجود معلوم.

– والثاني: معنى مدّعى موهوم.

فالمعنى الاول يكون في الكلام الواضح غاية الوضوح، وهو الذي يُغني عن الفكرة ولا يحتاج إلى كدّ وتعب ذهنيّين، ويأتي من خلال ألفاظ دالّة على معاني مُتعارف عليها وشائعة في الاستعمال، فشيوع الاستعمال هو الذي دلّ عليها وكشف عن معانيها. أمّا المعنى الثاني فهو الذي يمثّل المعنى الشريف اللطيف الذي لا بدّ فيه من بناء معنى ثاني على أوّل، وارجاع تالٍ إلى سابق([6])، وهذا المعنى لا يتشكّل من خلال ألفاظ معلومة وإنّما تنعدم ذوات الألفاظ الدالّة عليه، ويتمّ الاعتماد فيها كليّاً على المعاني الموجودة للوصول إلى أخرى موهومة مدّعاة من خلال الحكم الثابت الناشيء من تداخل المعاني الموجودة المعلومة.

والغرض الذي نوظّف له هكذا فهم، ونحتاج إلى اللجوء إليه هو عندما نريد أن نُثبت للكلام حكماً لمن يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره، فهو أشبه بقضيّة الإسناد العقليّ الذي ينبني على علاقة الإسناد القائمة بين طرفين، فهو لا يثبت لطرف من دون آخر، لا نفس ذلك الشيء[7].

1) المصدر السابق، مقدّمة الجرجاني: 3.
2) ينظر: المصدر السابق: 94.
3) ينظر: المصدر السابق: 93.
4) ينظر: المصدر السابق: 173.
5) المصدر السابق: 19.
6) ينظر: أسرار البلاغة:6، 144.
7) ينظر في هذه الفكرة: المصدر السابق: 47.

وهذا الفهم يتأتى من موقف الجرجانيّ من علاقة اللفظ بالمعنى، وأيّهما هو الأصل في البيان، فـ((...الألفاظ خدم المعاني والمُصرِّفة في حكمها، و...المعاني هي المالكة سياستها، المستحقّة طاعتها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فتْح أبواب العيب، والتعرّض للشين))[1]، فمثلما تكون الألفاظ هي الداعية لترتّب المعاني في النفس، قد يحصل العكس وتكون المعاني هي الداعية للألفاظ عبر مفهوم الخلافة اللفظيّة.

- الظواهر التي تندرج تحت مفهوم المصطلح:

من خلال مراجعة الظواهر البلاغيّة التي تنطبق عليها حدود مصطلح (الخلافة) اللفظيّة، وبعد تتبّع مواضع وروده تشكّلت لنا صورة واضحة عن الظواهر البلاغيّة التي ينطبق عليها مفهوم المصطلح، وهي بمجملها تندرج ضمن علم البيان الذي يركّز فيه الجرجانيّ على قضيّة المعنى، ومعنى المعنى، والتخيّل، والمعنى العقليّ، ومن خلال هذه الظواهر سنستعرض كيف انطبقت حدود المصطلح عليها، وكيف تمخّضت المعاني الذهنيّة عن ألفاظ دالّة عليها، وهذه الظواهر تأتي كالآتي:

- الاستعارة التصريحيّة:

يرى الجرجانيّ أنّ التخييل العقليّ للمعاني يشمل المفرد أيضاً وليس التركيب فقط مثلما ذهب إلى ذلك بعض البلاغيّين[2]، وذلك عندما يكون مدار عمل الاستعارة هو العقل وليس الحقيقة، ومن هنا يتشكّل مدار الإستعارة في المفرد لتطبيق موضوع الخلافة اللفظيّة، فهذا النوع يمثّل الصميم الخالص من الاستعارة، ((وحدّه أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقليّة، وذلك كاستعارة ((النور)) للبيان والحجّة الكاشفة عن الحقّ، المزيلة للشكّ النافية للريب، كما جاء في التنزيل نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ (الأعراف/ 157)، وكاستعارة ((الصراط)) للدين في قوله تعالى: ﴿ اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيـم ﴾(الفاتحة/ 6)، و﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيـم﴾(الشورى/ 52)، فإنّك لا تشكّ في أنّه ليس بين ((النور)) والحجّة... من الاشتراك في عموم الجنس، لأنّ ((النور)) صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجّة كلام، وكذا ليس بينهما ما بين ((الرجل)) و((الأسد)) من الاشتراك في طبيعة معلومة تكون في الحيوان كالشجاعة))[3]، ومراد الجرجانيّ من هذا الكلام أنّ صورة هذا النوع تنطبع في العقل في حالة شبيهة بحال البصر إذا ما صادف النور، ونفذ في أرجاء المكان وانتشر، ((وهذا كما تعلم شبه لست تحصل منه على جنس ولا على طبيعة ولا على غريزة، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخِلقة، وإنّما هو صورة عقليّة))[4].

وهذا النوع من الاستعارة يمثّل أرقى درجات الاستعارة منزلة- من وجهة نظر الجرجانيّ- والسبب هو: ((...أنّ هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفنّنها وتصرّفها، وههنا تخلص لطيفة روحانيّة، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدّة لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب))[5]، فجماليّة هذه الاستعارة ومنزلتها تعود إلى أنّها مدركة بالعقول لذوي النفوس القادرة على فكّ معانيها، وأمّا سواهم فلا؛ ولهذا فهي غير متاحة لجميع المتلقّين كي يفكّوا رموزها ويدركوا دلالاتها.

والمرجع في عقليّة هذا النوع من الاستعارة يعود إلى أساليب عديدة[6]، منها:

1- أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواسّ على الجملة للمعاني المعقولة.

2- أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها، ولكن وجه الشبه يكون عقليّاً.

3- أن يؤخذ الشبه من معقول إلى معقول.

---

1) أسرار البلاغة: 8.
2) ذهب إلى هذا الرأي السكاكيّ إذ قيّد التخييل العقليّ بالتركيب فقط (ينظر: مفتاح العلوم: 561- 562.
3) المصدر السابق: 65.
4) أسرار البلاغة: 65.
5) أسرار البلاغة: 66.
6) ينظر: المصدر السابق نفسه.

وسنحاول تطبيق ميدان الترابط بين هذا النوع من الاستعارة وما تؤول إليه من خلافة لفظيّة متحقّقة منه في مثالين منها، الأول هو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ (الأعراف/ 157)، يوضحه الجدول التحليليّ الآتي:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	واتّبعوا النور الذي أُنزل معه	دلّت الجملة التي وردت فيها لفظة (النور) على الفعل المخصوص من اتّباع النور المشاهد بالعين الباصرة، والسير خلفه، وهو نور أنزل مع صاحبه وهو شخص الرسول الكريم.
التركيب الثاني	معنويّ	واتّبعوا النور الذي أُنزل معه	دلّت على أنّ المراد من هذا النور هو قيمة معنويّة خاصّة بالرسول الكريم، ينبغي عدم اغفالها واتباعها في كلّ أحوالها من الإضاءة.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	واتّبعوا البيان الذي أُنزل معه	دلّت على أنّ هنالك شبهاً عقليّاً بين (النور) و(البيان) من حيث أنّ كليهما يضيء لصاحبه، فالحالة شبيهة بحال البيان والحجة إذا عرضت للقلب فإنّها تماثل حال البصر إذا صادف النور، وهذه المواصفات متحقّقة في الدين المحمّدي.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	واتّبعوا القرآن الذي جاء به الرسول	دلّت على أنّ المراد اتباع البيان والحجّة اللواتي تضمّنهما القرآن وأنزلت فيه بأمر إلهيّ فهي تنير القلب إذا ما اتبعها المتلقّي، وهو بيان وحُجّة إلهيّة.

فهذا الشاهد القرآنيّ يندرج ضمن أخذ الاستعارة من محسوس لمعقول، فالنور مشاهد محسوس بالبصر، والبيان والحجّة ممّا يؤدي إليهما العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواسّ، والشبه ينصرف إلى المفهوم من معاني الألفاظ لنتوصّل من خلالها لاحقاً إلى الألفاظ التي تنطبق عليها في الذهن، فالخلافة اللفظيّة متحقّقة بين اللفظ الأصلي وما دلّ عليه في الذهن لاحقاً من معانٍ أوصلت إلى ما يقابلها من ألفاظ، فالحجّة والبيان إنّما كانت دالّة على القرآن وما فيه من أحكام ينبغي اتّباعها، مع ملاحظة أنّنا نستدلّ بالخليفة اللفظيّ للوصول إلى الأصل، أيّ أنّنا نبدأ من التركيب الأوّل للوصول إلى التركيب الرابع، وفي حقيقة العمليّة الذهنيّة فإنّ العمليّة جرت بالعكس أي بدأت من التركيب الرابع وانتهت بالتركيب الأوّل.

ومثله قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم ﴾(الفاتحة/ 6)، فقد استعار لفظة (الصراط) وهي في الأصل تمثّل الطرف الثاني للتشبيه– المشبّه به– لتحلّ محلّ اللفظ الأصلي الذي هو (الدين) الذي يمثّل المشبّه، دالّة بذلك على الدين الإسلاميّ الصحيح، وهو الإسلام المحمّدي البعيد عن تيّارات التشدّد والتطرّف، ويمكن أن نتوضّح تنقّلات المعنى في التراكيب الجمليّة التي وقعت فيها الإستعارة في مجالها العقليّ من خلال الجدول التحليليّ الآتي:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	إهدنا الصراطَ المستقيم	دلّت الجملة على الدعاء والابتهال إلى الله سبحانه من خلال أسلوب الدعاء، والرغبة في تحقّق الهداية والاهتداء إلى الصراط المستقيم البعيد عن الإنحراف.
التركيب الثاني	معنويّ	اللهمّ إهدنا الصراطَ المستقيم	دلّت على أنّ المراد من هذه الاستقامة هي قيمة معنويّة خاصّة بالصراط الذي ينبغي تحقّق الهداية إليه بفضل الله سبحانه وتعالى وتوفيقه.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	اللهمّ إهدنا الدين المستقيم	دلّت على أنّ هنالك شبهاً عقليّاً بين (الصراط) و(الدين) من حيث أنّ كليهما يدلّ صاحبه على الطريق القويم، فالحالة شبيهة بحال الصراط المستقيم الذي يوصل إلى الهدف في أقصر وقت وأقلّ جهد، وكذا اتّباع طريق الدين الصحيح يوصل إلى رضا الله سبحانه ومغفرته.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	اللهمّ دلّنا على الدين المحمّديّ	دلّت على أنّ المراد الطلب من الله سبحانه أن يدلّنا ويهدينا إلى اتباع الدين المحمّدي الصحيح الذي ليس فيه انحراف، ويوصل إلى جادّة الصواب؛ كي نعبده حقّ عبادته.

فالشاهد القرآنيّ يشابه الشاهد السابق من حيث أنّه اعتمد أخذ لفظ الاستعارة (الصراط) من الأمر المحسوس المدرك، إلى لفظ (الدين) الذي هو أمر مدرك من خلال العقل، فالشبه ينصرف إلى المفهوم من معاني الألفاظ لنتوصّل من خلالها لاحقاً إلى الألفاظ التي تنطبق عليها في الذهن، والخلافة اللفظيّة متحقّقة بين اللفظ الأصلي وما دلّ عليه في الذهن لاحقاً من معانٍ أوصلت إلى ما يقابلها من ألفاظ، والدين كان دالاً على الوضع المعتدل في اتّباعه وليس المغالي أو المتطرّف.

والملاحظ من خلال تحليل الشاهدين السابقين أنّ ما ظهر به التركيب في شكله التركيبيّ الأوّل يمثل صورة أكثر ايجازاً واختصاراً وتعبيراً من الصورة اللفظيّة الذهنيّة التي كانت تمثّل في الحقيقة صورته الأصليّة؛ وإلى هذا السبب ترجع جماليّة علوم البلاغة وبالذات البيان في أنّه يوجز التعبير ويظهره في شكل آخر أكثر قوّة ومبالغة من الصورة اللفظيّة الأصليّة المخزونة في الذهن، وما ساعد على ذلك ((أنّ اطّراح ذكر المشبّه والاقتصار على اسم المشبّه به، وتنزيله منزلته، وإعطاءه الخلافة على المقصود، إنّما يصحّ إذا تقرّر الشبه بين المقصود وبين ما تستعير اسمه له، وتستبينه في الدلالة))[1]، فالعرف والاستعمال في دلالة لفظ الاستعارة هو الذي أتاح استدعاء المعنى في العقل.

الاستعارة المكنيّة التخييليّة:

ذكرنا في موضع سابق من البحث أنّ الجرجانيّ تحدّث في كتابه (أسرار البلاغة) عن تقسيمات الاستعارة المفيدة، وفيما أورده فقد ذكر مصطلح (خليفة) بشكل صريح، وأنّه قسّم الاستعارة المفيدة إلى استعارة واقعة في الاسم وأخرى واقعة في الفعل، ومدار وقوع مفهوم (الخلافة) اللفظيّة في الاستعارة الواقعة في الأسماء ((أن يؤخذ الاسم على حقيقته، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه، فيُقال: هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له، وجُعل خليفةٌ لاسمه الأصليّ ونائباً منابه))[2].

ففي النوع الأوّل من الاستعارة المفيدة يكون الإدّعاء واقعاً في اللفظ ذاته، ومجال الاستعارة حاصل بكلّ وضوح؛ لأنّ استدعاء المعنى الأصليّ للفظ ممكن وواقع لشيوع استعمال الألفاظ فيما بين المستعملين لها، ووضوح معناها لديهم وهو ما ذكرناه في نوع الاستعارة السابق. أمّا النوع الثاني فمجال التأويل فيه يحتاج إلى تدقيق وتفكير عقليّ؛ لأنّه ليس له أصل لفظيّ يمكن الرجوع فيه إليه بل يستند إلى التركيب الجمليّ الذي شكّله، وفي هذا النوع من الاستعارة يظهر مجال تطبيق مفهوم الخلافة اللفظيّة واضحاً من خلال صورته العقليّة المشكّلة في الذهن.

ويمكن أن نكشف عن المفهوم بشكل أكثر وضوحاً من خلال الأمثلة التحليليّة التي أوردها الجرجانيّ عن هذا النوع، إذ ذكر قول الشاعر لبيد:

وغـداةَ ريحٍ قـد كشفتُ، وقرّةٍ إذ أصبحت بيدِ الشمالِ زمامها[3]

قال الجرجانيّ محللاً: ((وذلك أنّه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنّه ليس هناك مُشار إليه يمكن أن تجري اليد عليه، كإجراء ((الأسد)) و((السيف)) على الرجل في قولك ((انبرى لي أسد يزئر)) و((سللتُ سيفاً على العدو لا يُفلّ))، و((الظباء)) على ((النساء)) في قوله: الظباءِ الغيدِ))[4]، فليس في الكلام لفظ مستعار من أصل يشتمل على صفةٍ مُراد الدلالة عليها مثلما حصل في النوع الأوّل، وإنّما الاستعارة بُنيت على التخييل والوهم والتقدير في النفس، فالشاعر ((أراد أن يُثبت للشمال في الغداة تصرّفاً كتصرّف الانسان في الشيء يقلّبه، فاستعار لها ((اليد)) حتّى يبالغ في تحقيق الشبه، وحكم ((الزمام)) في استعارته للغداة حكم ((اليد)) في استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مُشار إليه يكون الزمام كناية عنه، ولكنّه وفّى المبالغة شرطها من الطرفين، فجعل على ((الغداة)) ((زماماً))، ليكون أتمّ في إثباتها مصرّفة، كما جعل للشمال ((يداً)) ليكون أبلغ في تصييرها مصرّفة))[5]، فالاستعارة هنا لم تحصل من تشبيه جاء عفواً، يمكن الوقوف عليه بكلّ سهولة ويُسر مثلما حصل في النوع الأوّل، إذ لم يقصد الشاعر أن يقول: (إذ أصبح شيء مثل اليد للشمال)، أو (حصل شبيه باليد للشمال)، وإنّما أراد أن يقول أنّ الشمال أصبحت ذا قوّة تأثير في الغداة شبه المالك يتصرّف في الشيء بيده، يقلّبه كيف يشاء، ويجذبه نحو الجهة التي يريدها، وهذا التشبيه الواقع بين الطرفين لم يقع بألفاظ مباشرة وإنّما جاء من صورة منتزعة من سياق الكلام، وإذا رجعنا إلى الحقيقة ووضعنا الاسم المستعار في موضعه الأصليّ لا نجده يفيد الدلالة التي يريدها بذاته

1) أسرار البلاغة: 334.
2) أسرار البلاغة: 44.
3) ديوان لبيد بن ربيعة: 229.
4) أسرار البلاغة: 45.
5) المصدر السابق: 46، وينظر: 47.

وإنّما من خلال ما أضيف إليه: (غداةُ ريحٍ)، و(يدُ الشمالِ)، والغرض هو إثبات الحكم لمن يكون له ذلك الشيء في فعل أو غيره، لا نفس ذلك الشيء، والقرينة المقوية للمعنى هو استعمال لفظة (زمام) الدالّة على القوّة والسيطرة، وهذا النوع من الاستعارة يندرج ضمن الاستعارة المكنيّة التخييليّة، حيث يُضمَر التشبيه في النفس، ولا يُصرّح إلا بلفظ المشبّه، ويثبت له أمر مختّص بالمشبّه به على سبيل التخييل وهو ما حصل في بيت لبيد.

والمستويات التي تنقّل فيها الكلام وصولاً إلى المعنى النهائيّ تمثّله تراكيب جمليّة متعدّدة، عبّرت عن انتقالات ذهنيّة متوالية، يمكن افتراضها بالشكل الآتي:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	أصبحت بيدِ الشمالِ زمامُها	الجملة مؤلّفة من إضافة كلمة (يد) الدالّة على الجارحة المعروفة إلى كلمة (الشمال) التي هي ريح الشمال، والزمام الذي هو لجام الجمل أضيف إلى يد الشمال فهي تمسكه بيدها من دون أن تفلته.
التركيب الثاني	معنويّ	أصبحت بيدِ الشمالِ زمامُها	دلّت على جعله للشمال يداً تشبه يد الانسان، وهذا الأمر غير ثابت على وجه الحسّ، وكذا إمساك الزمام بهذه اليد هو أمر لا يمكن إدراكه على وجه الحسّ.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	أصبح للشمال يدٌ تشبه يد الإنسان تمسك زمام الغداة	دلّت على أنّ للشمال في الغداة تصرّفاً كتصرّف الانسان في الشيء يقلّبه كيف يشاء، فاستعار اليد للشمال وجمعهما معاً حتّى يبالغ في تحقيق الأمر وتفخيمه، واستعان بالقرينة اللفظيّة (زمام) كي تدلّ على القوة والسيطرة.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	أصبحت الشمال تشبه المالك في القوّة	دلّت على أنّ الشمال اصبحت ذا قوّة تأثير في الغداة شبه المالك يتصرّف في الشيء بيده، يقلّبه كيف يشاء، ويجذبه نحو الجهة التي يريدها.

فهذه التنقّلات المعنويّة للجمل حصلت في ذهن المتلقّي (السامع)، منطلقة من التركيب الجمليّ الأوّل الذي ظهر عليه الكلام، وتناوبت حتى وصلت إلى التركيب الرابع الذي شكّل خلاصة هذه التنقّلات ومنطلقها، وما تمخّض عنه من استدعاء ألفاظه ذهنيّاً للتعبير عن الدلالة المعنويّة الذهنيّة المتحقّقة في التركيب الثالث، وبذلك يظهر واضحاً ما نريد قوله عن بدء الانطلاق من التركيب اللفظيّ الذي ظهر في الكلام وهو التركيب الجمليّ الأوّل، لينتقل بعدها إلى الذهن في صورة معنى، ومن ثمّ يستدعي المعنى الذهنيّ ألفاظاً ذهنية دالّة عليه، تستدعي بدورها اللفظ الذهنيّ الذي يقوم مقامه في أداء معنى الألفاظ الواردة في التركيب الجمليّ الأوّل، فاللفظ الذهنيّ بموجب هذا الذي ذكرناه هو المنطلق الأصليّ للتركيب الأوّل الذي يمثّل الخليفة اللفظيّ له.

وكذا الحال في بيت زهير:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُهْ وعُـرّيَ أفـراسُ الصبّا ورواحـلُــهْ[1]

فنحن لا نستطيع من خلال قول الشاعر: (وعُرّيَ أفراسُ الصّبا ورواحِلُهْ) أن نحدّد ذواتاً مستعارة فيه، ونقول عنها أنّها دالّة على الأفراس والرواحل كما حدّدنا الأسد في دلالته على الشجاعة– مثلما حصل في النوع الأوّل من الاستعارة في الأسماء–، وإنّما وقعت الاستعارة من خلال صورة منتزعة من أكثر من لفظ، والمراد من البيت الشعريّ: ((... أنّ الصّبا قد تُرك وأهمل، وفُقد نزاع النفس إليه وبطل، فصار كالأمر يُنصرف عنه فتُعطّل آلاته، وتُطرح أداته، كالجهة من جهات المسير نحو الحجّ أو الغزو أو التجارة يُقضى منها الوطر، فتُحطّ عن الخيل التي كانت تُركب إليها لُبودها، وتُلقى عن الإبل التي كانت تُحمل لها قتودها))[2]، وهذه المعاني لا تأتي من ألفاظ مفردة، وإنّما من خلال الإضافة الواقعة في البيت: أفراسُ الصّبا، ورواحل الصّبا مع دلالة السياق.

1) ديوان زهير بن أبي سلمى: 51.
2) أسرار البلاغة: 48.

ولو تتبّعنا المستويات التي تنقّل فيها الكلام وصولاً إلى المعنى النهائيّ لوجدناه جرى على صورة التراكيب الجمليّة الآتية:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	عُرّيَ أفراسُ الصبا ورواحله	الجملة مؤلّفة من إضافة كلمة (أفراس) الدالّة على الحيوانات المعروفة، ذات السرعة في الحركة مع الدلال والتبختر إلى كلمة (الصبا) التي هي مرحلة من مراحل فتوّة الانسان وشبابه، والرواحل هي الجمال الحاملة للمتاع عند الخروج في رحلة قد يطول زمنها، طلباً للوصول إلى منفعة جاءت معطوفة على الأفراس ومضافة إلى (الصبا).
التركيب الثاني	معنويّ	عُرّيَ أفراسُ الصبا ورواحله	دلّت على أنّ الصبا له أفراس ورواحل، وهذا الأمر غير ثابت على وجه الحسّ، وغير واقع فعلاً.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	أصبح للصبا أفراسٌ ورواحلٌ تمّ تعريتها	دلّت على أنّ للصبا رحلة قد انتهت من خلال انزال عدّة الأفراس التابعة له، وامتعة الجمال، محقّقاً المنفعة المرادة من تلك الرحلة، وهي تحقّق الحكمة بعد تلك الرحلة، وطلب الراحة، وقد أوصل إلى هذا المعنى استعارة الصورة المركّبة من إضافة (أفراس الصبا)، و(رواحل الصبا).
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	صبا النفس يشبه الرواحل عند الإياب	دلّت على أنّ صبا النفس والنزوع إلى الشقاوة قد تُرك وأُهمل حاله حال رواحل السفر التي تحمل المتاع، والأفراس التي تحمل الأشخاص يتمّ انزال امتعتها بعد انتهاء أيّ رحلة لاراحتها، وفيها إشارة إلى فقد الرغبة في الصبا وابطاله من قِبل الشاعر.

فالخلافة اللفظيّة تحقّقت في التركيب الأوّل حيث تنقّلات المعنى من اللفظ الأصليّ قد تمّت واكتملت حيث مثّله التركيب الرابع.

والملاحظ أنّ الجرجانيّ يرى أنّ هذا النوع من الإستعارة المفيدة قد حقّق المبالغة في التشبيه في أفضل صوره اعتماداً على الخيال، وهذا الأمر يمكن التنبّه إليه واضحاً من خلال عكس عمليّة الترتيب للجمل، أي البدء بالجملة الرابعة والانتهاء بالجملة الأولى، فما ظهرت عليه الاستعارة في التركيب الجمليّ النهائيّ مثّلت أعلى درجات المبالغة في التراكيب لمن له صلاحيّة التكلّم بالكلام البليغ، أمّا الترتيب الذي أوضحناه– من الجملة الأولى إلى الرابعة– فيمثّل الترتيب الذي يتبعه المتلقّي البليغ كي يفهم مقصود الكلام، وفي الحالتين فإنّ شرط القدرة البلاغيّة العاليّة مهم للوقوف على مكنون هكذا نوع من التراكيب الفنيّة العالية الحسّ.

– التشبيه العقليّ المبني على التعدّد:

أضاف الجرجانيّ إلى مبحث التشبيه إضافات قيّمة أوصد الباحثون– ممّن أتى بعده – الباب بعدها، ولم يوسّعوا ملاحظاته القيّمة فيها، اعتماداً على ذوقه الفنّيّ العالي، وحسّه اللغويّ المرهف، ولن نتطرّق هنا لكلّ ملاحظاته عن التشبيه، وإنّما لموقفه من التشبيه المركّب من متعدّد فقط، فهو مجال بحثنا هنا، وهذا النوع من التشبيه ينقسم– عند متابعة الجرجانيّ– انقسامات مؤسّسة تبعاً للمعاني التي تعطيها طبيعة تراكيبه من الجمل، وما نريد التحدّث عنه– هنا– هو النوع الذي يكون التشبيه فيه مؤسّساً على جملتين، حيث ((يُتوهّم فيه أنّ إحدى الجملتين أو الجمل تنفرد وتستعمل بنفسها تشبيهاً وتمثيلاً))[1]، والشاهد الذي يستدلّ به الجرجانيّ على هذا النوع من التشبيه قول الشاعر:

كما أَبرَقَتْ قوماً عِطاشاً غمامةٌ فلمّا رَجَوها أَقْشَعَتْ وتجلّتِ

فالنظرة الأولى إلى شطر البيت الأوّل توهم أنّ التشبيه قد يكون مستقلاً بنفسه من خلال الصورة التي يوضّحها تركيب التشبيه الأول، ولكنّ الواقع غير ذلك، يقول الجرجانيّ: ((وقد يمكن أن يُقال: إنّ قولك: ((أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ)) تشبيه مستقلٌ بنفسه، لا حاجة به إلى ما بعده من تمام البيت في إفادة المقصود الذي هو ظهور أمر مُطمع لمن هو شديد الحاجة، إلا أنّه وإن كان كذلك، فإنّ

1) أسرار البلاغة: 110.

حقّنا أن ننظر في مغزى المتكلّم في تشبيهه، ونحن نعلم أنّ المغزى أن يصل ابتداء مُطمعاً بانتهاء مُؤيس، وذلك يقتضي وقوف الجملة الأوّلة على ما بعدها من تمام البيت))[1]، فالنظر إلى معنى التشبيه يحدّده غرض المتكلّم الذي يريد الوصول إليه، وغرضه في البيت أنّ يُثبت ابتداءً مطمعاً مؤنساً أدّى إلى انتهاء مؤيس موحش، فالمعنى الذي زاده التشبيه هو هذه الرحلة بين الإبتداء وصولاً إلى الإنتهاء، وهذه الحركة ما كان لها أن تكون إلا من خلال ترتيب جمل التشبيه على الترتيب المخصوص المراد منه بحسب طبيعة المعنى، وهو ممّا لا يتأتّى فيما لو جُمع معنى الجملتين معاً ومُزج وجه الشبه من بعضهما بعضاً، أو عُطف بينهما على سبيل التشارك غير المرتّب، وإنّما تأتّى من خلال ورود صورة مكتملة لتشبيه أوليّ شكّل ابتداءً للصورة المراد الوصول إليها في صورة التشبيه اللاحقة، فالتشبيه قام على تركيب جمليّ متعدّد، مُراعى فيه الترتيب.

والانتقال الجمليّ لهذا التراكيب التشبيهيّة جاء على الشكل الآتي:

التركيب التشبيهيّ (1)	التركيب التشبيهيّ (2)
– التركيب الأوّل (لفظيّ): أبرقَتْ قوماً عِطاشاً غمامةٌ ⇦ دلّت على وقوع فعل الإبراق من الغمامة فوق رؤوس قومٍ عطاشى.	– فلمّا رجوها أقشعت وتجلّتِ ⇦ دلّت على حدوث ثلاثة أفعال في هذه الصورة: رجوها، وأقشعت، وتجلّت، وأنّ الفعل الأول وقع من القوم، والثاني والثالث وقعا من الغمامة.
– التركيب الثاني (معنويّ): أبرَقَتْ غمامةٌ قوماً عِطاشاً ⇦ دلّت على أنّ الغمامة هي التي نادتهم وأمّلتهم من خلال فعل الإبراق الذي أحدثته، فكأنّ الحركتين الفعليّتين منجذبتين إلى بعضهما بعضاً.	– فلمّا رجوها أقشعت وتجلّتِ ⇦ دلّت على أنّ الرجاء وقع من قبل القوم، وأنّ الإنقشاع والاختفاء وقع من الغمامة، فكأنّ الحركتين الفعليّتين متضادّتين متنافرتين.
– التركيب الثالث (معنويّ ذهنيّ): ظهور أمرٌ مُطمع لمن هو شديدُ الحاجةِ ⇦ فالغمامة المحمّلة بالماء هي مطمع للقوم العطاشى لشدّة حاجتهم إليها، وكذا كلّ أمر مطموع فيه.	– الوقوف على أمر مؤيس مثير للاحباط ⇦ دلّت على شعور القوم بالإحباط لحصول اليأس من عدم وقوع المطر، وكذا كلّ أمر نرجوه ولا يتحقّق.
– التركيب الرابع (لفظيّ ذهنيّ): الابتداء بأمر مُطمع لمن هو شديدُ الحاجةِ، والانتهاءُ به مُؤيساً لهم ومثيراً للإحباط ⇦ إذ دلّت التراكيب على وقوف الصورة الأولى من التشبيه على الصورة الثانية، وكون الابتداء وقع من الصورة الأولى والانتهاء بالثانية فهو يشير إلى انتقال حركيّ بين النقطتين: البداية، والنهاية، وهو ما أضافه هذا الربط ضمن هذا الفنّ من التشبيه.	

وهذا النوع من الفنّ يختلف عمّا سبق في أنّ الانتقالات الجمليّة حصلت من خلال التراكيب التشبيهيّة كلّ على انفراد، ومن ثمّ اشتراكهما في الصورة الذهنيّة النهائيّة، وبالتالي في الصورة اللفظيّة المترتّبة عنهما، ومن هنا تأتي جماليّة هذا الفنّ التشبيهيّ، ويقارب الجرجانيّ هذا النوع من التشبيه بصورة الشرط والجزاء التي تحصل في أسلوب الشرط في علم النحو؛ فعلى الرغم من أنّهما يردان بصورة جملتين في الأسلوب: (جملة الشرط، وجوابه) إلا أنّهما يحملان حكم الجملة الواحدة في الكلام، يقول الجرجانيّ: ((ووزان هذا أنّ الشرط والجزاء جملتان، ولكنّا نقول: إنّ حكمهما حكم جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنى يربط إحداهما بالأخرى، حتّى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفرد في امتناع أن تحصل به الفائدة ...فكذلك الاقتصار على الجملة التي هي: ((أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ)) يخرج عن غرض الشاعر))[2]، فالجرجانيّ يركّز على مسألة وقوع التشبيه المتعدّد هنا على قضية الجمع بين تركيبيّ التشبيه؛ لأنّ عدم الجمع بينهما يؤدي إلى إلشطط في القول.

ومثال آخر على هذا الفنّ البيانيّ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾(يونس/ 24)، إذ أشار الجرجانيّ إلى وقوع التشبيه العقليّ القائم على التعدّد الجمليّ للوصول إلى تحقيق الفائدة المرجّوة منه والمقصد المطلوب، فقال: ((ألا ترى ...كيف كثُرت الجمل فيه؟ حتى إنّك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فُصّلت. وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض

1) المصدر السابق: 111.
2) أسرار البلاغة: 111.

حتّى كأنّها جملة واحدة، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثمّ إنّ الشبه مُنتزع من مجموعها، من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض، وإفراد شطر من شطر، حتّى إنّك لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان، أخلّ ذلك بالمعزى من التشبيه))[1]، فالآية – مثلما يقول الجرجانيّ– اشتملت على عشرة جمل تقريباً، ولكنّها ترتّب بعضها على بعض لتعطينا صورة تشبيهيّة رائعة، ولو أعدنا استنطاق الجمل الواردة في الآية لوجدناها وردت بالشكل الآتي:

ترتيب الجملة	نوع الجملة		
	لفظيّة	معنويّة	ذهنيّة
الجملة الأولى	مَاء أَنزَلْنَا	أمرَ الله سبحانه الماء بأن ينزل	الله سبحانه هو المسخّر
الجملة الثانية	أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء	أنزلَ اللهُ– سبحانه– الماءَ من السماء	الله سبحانه هو الرازق.
الجملة الثالثة	فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ	اختلطَ نباتُ الأرضِ بالماءِ	حاجة نبات الأرض إلى الماء دائماً.
الجملة الرابعة	مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ	يأكلُ الناسُ والأنعامُ من نباتِ الأرضِ	حاجة الناس والأنعام إلى الأكل دائماً.
الجملة الخامسة	حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا	أخذت الأرضُ زخرفُها بفضلِ الله تعالى	فضل الله، فهو المحيي.
الجملة السادسة	وَازَّيَّنَتْ	إزيّنت الأرضُ بفضل الله تعالى	فضل الله، فهو الآمر لمخلوقاته.
الجملة السابعة	وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ	ظنّ أهلُ الأرض أنّهم قادرون على حصادها	التكبّر وادّعاء القدرة من قبل الناس.
الجملة الثامنة	أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا	أتى أمرُ اللهِ ليلاً أو نهاراً	قدرة الله سبحانه على اتيان العذاب.
الجملة التاسعة	فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا	جعلَ اللهُ الأرضَ حصيداً	قدرة الله سبحانه على التحطيم.
الجملة العاشرة	كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْس	كأنَّ الأرضَ لم تخضّر أصلاً	قدرة الله سبحانه على الإماتة.
الجملة الذهنيّة اللفظيّة	عظمة الخالق مقابل حاجة المخلوق أو: فضل الخالق مقابل تكبّر المخلوق أو: قدرة الخالق مقابل عجز المخلوق		

ونلاحظ أنّ الأفعال التي تجسّدت في هذه الجمل المستقلّة جاءت مجسّدة لثنائيّات ذهنيّة من خلال ألفاظ ضمّنت كلّ المعاني الذهنيّة للتراكيب الجمليّة في هذا التشبيه المتعدّد، وهذه الثنائيّات جميعاً جمعتها الصورة التشبيهيّة المنتزعة من هذه الجمل، وهي صورة عقليّة ذهنيّة عبّرت عن كلّ هذه الثنائيّات مرّة واحدة، فمثلما لاحظنا في الجمل المستقلّة السابقة أنّ كلّ واحدة منها عبّرت عن صفة واحدة من الصفات التي استعرضتها الآية، وهذه الصفة قد تتناقض مع الصفة التي تليها في الجملة اللاحقة، ولكن أن تجتمع هذه الصفات جميعاً في صورة واحدة فأمر يستحيل في الوضع الطبيعيّ للجمل المستقلّة فهي بحاجة دائمة إلى الترتيب المخصوص، من هنا كانت الحاجة ماسّة إلى التشبيه العقليّ الذي يقرّب صورة واقعيّة من أخرى عقليّة، مضفياً عليها سمات قد لا تجتمع سوية إلا في الذهن وعلى سبيل الوهم أحياناً حيث يستحيل وقوع كلّ حزئيّاتها جملة واحدة وعلى هذه الكيفيّة من الوصف، وكأنّ الله سبحانه وتعالى لجأ إلى هذا الفنّ البيانيّ كي يختصر كلّ الثنائيّات السابقة للوصول من خلالها إلى إعطاء صورة منتزعة عبّرت عن الدنيا وما يكون فيها من متع خادعة.

وفي هذه الآية الكريمة فإنّ الخلافة اللفظيّة تحقّقت من خلال المعاني الذهنيّة للتراكيب الجمليّة جميعاً منطلقة من دلالة معنى ألفاظ الآية لتعبّر عن جملة ذهنيّة واحدة بخيارات متعدّدة، وما نلحظه واضحاً مدى الاختصار والايجاز الذي تحقّق بفضل الصورة العقليّة القائمة على التخييل، والمتحقّقة من خلال دلالات التراكيب الجمليّة المتعدّدة، القائمة على الترتيب، فاجتمعت دلالات هذه الجمل معاً مع الحفاظ على استقلاليّتها لتعطينا صورة ذهنيّة عبّرت عنها الجملة اللفظيّة القائمة في الذهن محقّقة مفهوم الخلافة لأصول تراكيب الألفاظ التي انطلقت منها.

1) أسرار البلاغة: 109.

- التشبيه العقليّ المبني على المزج:

حالة (المزج) في وجه الشبه- من وجهة نظر الجرجانيّ- تختلف عن حالة (التعدّد)- السابقة-، فهي دالّة على حالة خاصّة من التشبيه العقليّ، إذ يكون وجه الشبه مُنتزعاً من عدّة أمور، مجموع بعضها إلى بعض على سبيل المزج، بحيث تحصل صورة غير ما كانت عليها في حال الإفراد، وليست على سبيل الحفاظ على صورة كلّ شيء على حاله قبل المزج [1].

ومن استدلالات الجرجانيّ على هذا الفنّ البيانيّ قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾(الجمعة/5)، فمفهوم الخلافة اللفظيّة التي أسّس لها الجرجانيّ تنطبق بشكل واضح على الشبه العقليّ الواقع في هذه الآية الكريمة؛ وذلك من خلال قوله: ((الشبه منتزع من أحوال الحمار، وهو أنّه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمار العقول، ثمّ لا يُحسّ بما فيها ولا يُشعر بمضمونها، ولا يفرّق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له ممّا يحمل حظ سوى أنّه يثقل عليه، ويكدّ جنبيه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألّفت وقُرن بعضها إلى بعض))[2]، فالمعنى المستفاد من الكلام لم يأتِ بصورة مباشرة ممّا وُضع له في الأصل وإنّما جاء من خلال معاني الألفاظ التي أوحت بمعانٍ جديدة تختلف عن الأصل الذي انطلقت منه، لتمهّد لألفاظ ملاءمة للمعاني الجديدة، محقّقة مفهوم الخلافة اللفظيّة ذهنيّاً.

وتفسير ما سبق يمكن توضيحه بالقول إنّ الصورة التشبيهيّة المُنتزعة من الكلام والمشكّلة في الذهن جاءت من ائتلاف عدّة جمل متداخلة مع بعضها بعضاً، وممتزجة معاً للوصول إلى الصورة المراد التعبير عنها، فهذه الجمل في أصلها دلّت على جمل عدّة، منها:

التركيب التشبيهيّ (1)	التركيب التشبيهيّ (2)
- التركيب الأوّل (لفظيّ): مثل اللذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها ⇦ دلّت على وقوع فعل الحمل من قبل اليهود ولكن في حقيقة الأمر هم لم يحملوها.	- مثل الحمار يحمل أسفاراً⇦ دلّت على وقوع فعل الحمل من قبل الحمار- الحيوان المعروف بالبلادة- للأسفار.
- التركيب الثاني (معنويّ): الذين حمّلوا التوراة ثمّ لم يدركوا معانيها⇦ دلّت على أنّ حاملي التوراة لم يؤدّوا معانيها الإلهيّة الصحيحة.	- مثل الحمارُ يحمل كتباً ولا يفهم معانيها ⇦ دلّت على أنّ الحمار لم يعرف معاني الكتب التي يحملها.
- التركيب الثالث (معنويّ ذهنيّ): اليهود جهلة حملوا كنزاً ولم يدركوا قيمته ⇦ دلّت على سمة الجهل المتحقّقة عند اليهود، فهم أسوأ حالاً من الحمار الذي تمثّل البلادة جزءاً من صفاته وطباعه، فكأنّهم اكتسبوا هذه الصفة منه وزادوا عليه.	- الحمار بليد لأنّه يحمل كتباً ولا يدرك قيمتها ⇦ دلّت على سمة الجهل المتحقّقة عند الحمار ومتأصّلة في طباعه.
- التركيب الرابع (لفظيّ ذهنيّ): التعب في حمل المنافع من دون فائدة ⇦ دلّت على أنّ التعب في حمل المهمّات الصعبة والثقيلة لن يجدي نفعاً إن لم يقترن بإدراك صحيح وسليم للأمور.	

فمن خلال تداخل هذه الجمل وامتزاجها بعضاً ببعض أعطتنا صورة ذهنيّة جديدة لا يمكن أن تتحقّق باعتماد الجمل بصورة مستقلّة ومباشرة؛ لأنّ الصورة المباشرة سوف تعطينا صورة لحال الحمار وهو يحمل الأسفار من دون أن يقترن به الجهل، في حين أنّ امتزاج الجمل أعطى صورة وهميّة مبنيّة على عدم إدراك (الحمار) وهو حيوان لا يدرك قيمة ما يحمله إلا من ناحية الثقل أو الخفّة، أمّا القيمة المعنويّة للعلوم التي يحملها وما تحقّقه من منافع للبشريّة فهي أمور لا تهمّه أو تدخل في حساباته، وهذه الصورة المتخيّلة لا يمكن أن تقع في أرض الواقع- من إدراك الحمار بذاته لحقيقة ما يحمله- ومن هنا جاء التعبير عنه بصورة التشبيه العقليّ الذي رسم لنا صورة عقليّة متخيّلة، وضّحت هذه النقطة بالذات، وركّزت عليها، هذا الامتزاج الذي جسّدته الجمل حقّق الفائدة المرجوّة منها من المبالغة بتجهيل اليهود في حملهم التوراة التي تمثّل نصوصاً إلهيّة، وعدم المعرفة بقيمتها الحقيقيّة.

1) ينظر: أسرار البلاغة: 101.
2) المصدر السابق: 101.

وهذه الصورة التشبيهيّة المتكوّنة من خلال امتزاج الجمل من المستحيل تفكيك المعاني التي أعطتها، وإعادتها إلى أصلها فيما لو حاولنا إرجاع الصورة المتكوّنة منها إلى دلالتها الوضعيّة، فما انطلقت منه هو معنى متكوّن عن لفظ، وليس عن لفظ مباشر، ويفسّر الجرجانيّ هذه الآليّة في الانتقال من معنى إلى آخر بأنّ القياس في هذا الفنّ اعتمد ((قياس أشياء يُبالغ في مزاجها حتى تتّحد وتخرج عن أن تُعرف صورة كلّ واحد منها الانفراد، بل تبطل صورها المفردة التي كانت قبل المِزاج، وتحدُث صورةٌ خاصّة غير اللواتي عهدت، وتحصل مذاقة لو فرضْتَ حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج، فرضت ما لا يكون، [و] لم يتمّ المقصود، ولم تحصل النتيجة المطلوبة، ...، مع حرمان ذلك الغرض وعدم الوصول إلى تلك الفائدة))[1].

وكلّ شبه عقليّ يصبح من هذا القبيل حيث لا نجد بين معناه وبين اللفظ الأصليّ الذي انطلق منه ملابسة البتة، مثلما يقول الجرجانيّ: ((وإذ قد عرفت هذا فالحمل في الآية من هذا القبيل أيضاً، لأنّه تضمّن الشبه من اليهود، لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل، بل لأمرين آخرين: أحدهما تعدّيه إلى الأسفار، والآخر اقتران الجهل للأسفار به، وإذا كان الأمر كذلك، كان قطعُك الحمل عن هذين الأمرين في البعد من الغرض، ... في استحالة أن يُعقل منهما ما يُعقل...))[2]، وهذه الفائدة المتحقّقة من تخصيص الحمل– من الحمار– بالأسفار، واقترانه بالجهل منه، لا يمكن أن نعبّر عنه من خلال الأسلوب المباشر في التشبيه، أو من خلال التعبير الجمليّ المستقلّ، ومن هنا كان القصد من المتكلّم– سبحانه– هو الذي أوجب هذا الأسلوب الرائع والدقيق في الوقت نفسه، من حيث إنّه يحتاج إلى إمعان وكدّ ذهن كي نتوصّل إليه، أو مثلما يقول الجرجانيّ– الذي أشرنا إليه في كلام سابق– أنّ اللبيب الحاذق هو الذي يستطيع الوقوف على هذا النوع من الكلام، واستخراج معانيه العصيّة على غيره.

أمّا القيمة المتحقّقة من هكذا تشبيه عقليّ فهي أنّها لا تكون على المكانة نفسها من التشبيهات الظاهرة وإنّما تكون قريبة منها، يقول الجرجانيّ: ((فالمتشابهات المتأوّلة التي ينتزعها العقل من الشيء للشيء، لا تكون في حدّ المشابهات الأصليّة الظاهرة، بل الشبه العقليّ كأنّه الشيء به يكون شبيهاً بالمشبّه))[3]، وقد اقترنت هذه الصورة بقيمة لفظيّة أعطت ألفاظاً أخر مسوّغاتها للخلافة وأداء معانيها ذهنيّاً.

ومثله في الامتزاج قول الشاعر:

فأصبحتُ من ليلى الغداةَ كقابضٍ على الماءِ خانتهُ فروجُ الأصابعِ

فالصورة التشبيهيّة في البيت الشعريّ هي صورة عقليّة جاءت من امتزاج عدّة عناصر، ((فالشبه ههنا منتزع ممّا بين القبض والماء، وليس بمنتزع من القبض نفسه، وذلك أنّ فائدة قبض اليد على الشيء أن يحصل فيها، فإذا كان الشيء ممّا لا يتماسك، ففعلك القبض في اليد لغو، ...وإذا فعلته فيما لا يقبله، كان فعلك كلا فعل))[4]، وفي هذه الصورة إشارة إلى استحالة تحقّق نتيجة وفائدة من الفعل الحاصل، فالقبض يُفترض أن يقع على شيء قابل للإمساك به كي تتحقّق النتيجة المرادة، أمّا أن يقع القبض على الماء الذي هو معروف ومشاهد وضعه في الحياة اليوميّة من استحالة الإمساك به فهو أمر لا يحقّق أيّة فائدة مرجوّة، وقد حقّق الشاعر من خلال هذا النوع من التشبيه ما أراده من ((أنّه قد خاب في ظنّه أنّه يتمتّع بها ويسعد بوصلها، وليس بمنكر ولا عجيب ولا ممتنع في الوجود، خارج من المعروف المعهود، أن يخيب ظنّ الانسان في أشباه هذا من الأمور، حتى يُستشهد على إمكانه، وتُقام البيّنة على صدق المدّعي لوجدانه))[5].وهذه التنقّلات في الجمل يمكن توضيحها في الجدول الآتي:

1) أسرار البلاغة: 102.
2) المصدر السابق: 105، وينظر: 104، 106.
3) المصدر السابق: 100.
4) اسرار البلاغة: 104.
5) المصدر السابق: 124.

التركيب التشبيهيّ (1)	التركيب التشبيهيّ (2)
– التركيب الأوّل (لفظيّ): فأصبحتُ من ليلى الغداةَ⇦ دلّت الجملة من خلال الفعل (أصبح) على أنّ الشاعر أدرك طبيعة علاقته العاطفيّة بليلى بعد مضيّ فترة زمنيّة قصيرة (الغداة).	– كقابضٍ على الماءِ خانتهُ فروجُ الأصابعِ ⇦ دلّت على حالة القبض على الماء بشدّة، ومع ذلك لم يستطع الإمساك به.
– التركيب الثاني (معنويّ): فأصبحتُ من ليلى الغداةَ ⇦ دلّت على إدراك الشاعر حالته من الوصل مع ليلى بأنّه أمر مثير لقلقه، وهي تماثل الصورة التي أوردها في الطرف الثاني من التشبيه.	– كقابضٍ على الماءِ خانتهُ فروجُ الأصابعِ ⇦ دلّت على وقوع التناقض بين أمرين: الرغبة الشديدة، واستحالة حصول الأمر.
– التركيب الثالث (معنويّ ذهنيّ): الرغبة الشديدة من الشاعر لوصل حبيبته ليلى ⇦ دلّت على أنّ وصل الحبيبة هو أمر مطموع فيه على الرغم من يأسه.	– الدليل على أنّ إمساك الماء هو أمر ميؤوس منه ⇦ دلّت على معاينة إمساك الماء، وأنّ نتيجته غير متحقّقة مع شدّة الرغبة.
– التركيب الرابع (لفظيّ ذهنيّ): أن يخيب الظنّ في الحصول على أمر مرغوب به بشدّة مع تأييد الحجّة⇦ إذ دلّ التشبيه ما بين الطرفين أنّ الصورة الأولى مؤلّفة من أمور ممتزجة مع بعض لتعطينا صورة عقليّة ممكن تصوّرها من الرغبة في وصل الحبيبة وإسعادها، تقابلها صورة مزجيّة لعناصر تعطينا صورة حاضرة للدليل الساند على حصول اليأس وانعدام الوصل.	

وهذه الصورة العقليّة ما كان لها أن تكون إلا من خلال هذا المزج والتداخل بحيث إنّنا لو أرجعنا الألفاظ إلى أصلها ما كان لها أن تعود إلى ألفاظ معيّنة، وإنّما هي في تداخلها أعطتنا صورة جميلة ومشاهدة للعيان، فكأنّ الصورة ماثلة أمام الأعين لدرجة واقعيّتها.

وقد أدرج الجرجانيّ هذا البيت الشعريّ مقارباً به ما حصل في الآية السابقة له من حمل اليهود للتوراة وارتباطهم بالجهل في هذا الحمل أسوة بالحمار لا بل أسوأ منه، هذه المقاربة رأى الجرجانيّ أنّها جاءت من الصورة العقليّة المبنيّة على المزج، ((وإذا قد عرفت هذا فالحمل في الآية من هذا القبيل أيضاً، لأنّه تضمّن الشبه من اليهود، لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل، بل لأمرين آخرين، أحدّهما تعدّيه إلى الأسفار، والآخر اقتران الجهل للأسفار به، وإذا كان الأمر كذلك، كان قطعك الحمل على هذين الأمرين في البعد من الغرض، كقطعك القبض والرقم عن الماء، في استحالة أن يُعقل منهما ما يُعقل بعد تعدّيهما إلى الماء بوجه من الوجوه))[1]، فالتركيب التشبيهيّ لم يأتِ من ألفاظ مفردة وإنّما من نسق تركيبيّ عبّر عن المعنى المراد.

– الكناية:

قد لا نبالغ إذا قلنا إنّ فكرة الخلافة اللفظيّة تظهر بشكل واضح في الكناية أكثر بكثير ممّا استعرضناه عن مواطن تطبيقاتها الأخرى، والفكرة بمجملها لا تقع في نوع واحد منها بل تشمل كلّ أنواعها بلا استثناء من الكناية في نفس الصفة، أو الكناية عن إثباتها، وقد يعود سبب دقّة مسلك هذا الفنّ إلى قضيّة الخلافة هذه من حيث إنّ تنقّلات المعنى لا يدركها أيّ متلقّ، وإنّما هي حكر على أشخاص ذوي مواصفات حسيّة عالية، وهذا الأمر غير متاح لكلّ المتلقّين، فإذا ما تصدّى لفهمها شخص بمثل هذه المواصفات فإنّه سيكفي الآخرين مؤونة البحث المضني عن تنقّلات المعنى التي تنتهي بما ستؤول إليه من الألفاظ الذهنيّة، يقول الجرجانيّ: ((هذا فنّ من القول دقيق المسلك، ولطيف المأخذ، وهو أنّا نراهم كما يصنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب، وإذا فعلوا ذلك، بدت هناك محاسن تملأ الطرف، ودقائق تُعجز الوصف، ...وبلاغة لا يكمل لها إلا الشاعر المفلّق، والخطيب المصقع))[2].

والسبب في هذا الوضوح هو أنّ تنقّلات المعنى تتعدّد في هذا الفنّ البيانيّ، وبالتالي تتنوّع الألفاظ التي تستدعيها، فهو فنّ مبني على الاتساع والتفنّن في التعبير مثلما يقول الجرجانيّ: ((والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيوميء به إليه، ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم:

1) أسرار البلاغة: 105.
2) دلائل الإعجاز: 306.

((هو طويل النجاد))[1]، فالوصول إلى اللفظ الأصليّ لم يتمّ مباشرة وإنّما من خلال تنقّلات المعنى انتهاءً باللفظ الذي استدعاه، والعزوف عن الاستعمال المباشر للفظ حقّق غرضاً بلاغيّاً ما كان له أن يتحقّق عبر الوسيلة البلاغيّة البسيطة، يقول الجرجانيّ: ((... وكما أنّ الصفة إذا لم تأتك مصرّحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذ لم تُلقه إلى السامع صريحاً، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزيّة، ومن الحسن والرونق، ما لا يقلّ قليله، ولا يُجهل موضع الفضيلة فيه))[2]، وبذا تدخل الكناية ضمن الفنون البيانيّة التي يُعدل فيها عن ظاهر اللفظ إلى المعنى ومعنى المعنى، ((... فينبغي أن تنظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً، وتعرف محصولها وحقائقها، وأن تنظر أولاً إلى ((الكناية))، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنّها إثبات لمعنى، وأنت تعرف ذلك المعنى عن طريق المعقول دون طريق اللفظ))[3].

ومفهوم الخلافة اللفظيّة في هذا الفنّ يمكن متابعته من خلال ما استدلّ به الجرجانيّ على الكناية، وكيف كان تحليله لها، ففي النوع الأوّل من الكناية عن الصفة يورد الجرجانيّ أمثلة متعدّدة، منها قول الشاعر ابن هرمة:

لا أُمتعُ العُودَ بالفصال ولا أبتاع إلا قـريبةَ الأجــلِ

قال الجرجاني: ((ابن هرمة أراد بقوله... التمدّح بأنّه مضياف، ولكنّك عرفته بالنظر اللطيف، وبأن علمت أنّه لا معنى للتمدّح بظاهر ما يدلّ عليه اللفظ من قُرب أجل ما يشتريه، فطلبت له تأويلاً، فعلمت أنّه أراد أنّه يشتري ما يشتري للأضياف، فإذا اشترى شاة أو بعيراً، كان قد اشترى ما قد دنا أجله؛ لأنّه يُذبح ويُنحر عن قريب))[4]، فتنقّلات المعنى اشتملت تركيبين دلا على مفهوم الكرم وحبّ الضيافة:

التركيب التشبيهيّ (1)	التركيب التشبيهيّ (2)
– التركيب الأول (لفظيّ): لا أمتعُ العوذَ بالفصال ⇦ دلّت الجملة على أنّ صغار الإبل لا تتمتّع بأمّهاتها.	– لا أبتاعُ إلا قريبةَ الأجلِ⇦ دلّت على أنّ الشاعر لا يشتري من الماشية إلا بما هو موصوف بقرب الأجل.
– التركيب الثاني (معنويّ): لا أمتعُ العوذَ بالفصال⇦ دلّت الجملة على أنّ الفراق واقع من الطرفين ولهذا هي لا تتمتّع بوجود الأخرى.	– لا أبتاعُ إلا قريبةَ الأجلِ⇦ دلّت على المضادّة اللافتة للانتباه فاشتراء شيء يعني التمسّك به والاحتفاظ به لأطول أجل، وقرب الأجل يضادّ ذلك ويعاكسه، فكيف يجتمعان.
– التركيب الثالث (معنويّ ذهنيّ): أذبحُ العوذَ والفصال⇦ دلّت الجملة على أنّ سبب عدم الإمتاع يعود إلى وقوع الذبح على العوذ فتفتقدها الفصال أو العكس، أو هما معاً إكراماً للضيف؛ ولهذا السبب هي لا تتمتّع بلحظات حياتها مثلما يجب.	– كلّ ما أشتريه يُذبح مباشرةً ⇦ دلّت على أنّ هذه المضادّة سببها هدف أكبر هو إكرام الضيوف الذين شكّل عددهم جمعاً غفيراً بحيث أنّ ما موجود لديه لن يفي بإطعامهم؛ ولهذا يلجأ إلى شراء المواشي التي تُذبح جميعاً بمجرّد وصولها.
– التركيب الرابع (لفظيّ ذهنيّ): إنّه رجلٌ مضياف ⇦ فقد دلّت تنقّلات المعنى في طرفيّ البيت الشعريّ على أنّ الشاعر أراد التمدّح بنفسه من أنّه رجل مضياف وأنّ إكرامه للضيف يقع فوق كلّ إعتبار من صرف الأموال، أو بذل الجهد في سبيل توفير الطعام.	

ومثله أيضاً في التعبير عن صفة الكرم وحبّ الضيافة قول الشاعر:

وما يكُ فيّ من عيبٍ فإنّي جبانُ الكلبِ مهزولُ الفصيل

فالشاعر أراد أن يصف نفسه بصفة الكرم فاستعمل تراكيب دالّة على هذا المعنى، وقد عبّر الجرجانيّ عن هذه القضيّة بقوله: ((...أنّه أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة، فكنّى عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل، وترك أن يصرّح فيقول: قد عُرف أنّ جنابي مألوف، وكلبي مؤدّب لا يهرّ في وجوه من يغشاني من الأضياف، وأنّي أنحر المتالي من إبلي، وأدع فصالها هزلى))[5]، فاستعمال

1) ينظر: دلائل الإعجاز: 66.
2) المصدر السابق: 306.
3) المصدر السابق: 431.
4) المصدر السابق نفسه.
5) دلائل الاعجاز: 308.

تراكيب: جبان الكلب، ومهزول الفصيل عبّرت عن المراد من خلال تنقّلات معانيها عبر مفهوم الخلافة اللفظيّة، وصولاً إلى الألفاظ الأصليّة المرادة منها، والجدول الآتي يكشف عن هذا الأمر:

التركيب الكنائيّ (1)	التركيب الكنائيّ (2)
– التركيب الأوّل (لفظيّ): فإنّي جبانُ الكلبِ ⇦ دلّت الجملة على أنّ الكلب – الحيوان المعروف – الذي يقتنيه يتميّز بصفة الجبن، وهي سمة ملازمة له، وهي سمة لا تلازم هذا الحيوان على أرض الواقع.	– مهزولُ الفصيل⇦ دلّت على أنّ فصيله مهزول دائماً، ولم يبيّن سبب الهزال هذا في اللفظ ولكن الاستدلال جاء عليه من المعنى.
– التركيب الثاني (معنويّ): فإنّي جبانُ الكلبِ ⇦ دلّت الجملة على أنّ سمة الجبن التي وسم بها كلبه هي سمة ملازمة له وثابتة متأصّلة في طباعه من خلال استعمال صيغة الاسم مع الإضافة، فضلاً عن صيغة الجملة الإسميّة، فكلب الشاعر لا يؤدّي مهمّته التي أقتناه من أجلها من الحراسة والحماية إذا ما اقترب شخص غريب منه.	– مهزولُ الفصيل ⇦ دلّت الجملة على أنّ فصيله لا تتغيّر حالته من الهزال إلى سواه من حالات الشبع التي تظهر على الحيوان فيما لو تمّ تغذيته بصورة جيّدة، فالفصيل الذي يعود إليه يتسم بسمة الهزال الدالّة على عدم التغذية بشكل جيّد.
– التركيب الثالث (معنويّ ذهنيّ): كلبي أليف بالغريب ⇦ دلّت الجملة على أنّ سبب الجبن الذي لازم كلب الشاعر يعود إلى ألفته وتعوّده على رؤية الغرباء؛ ولهذا فهو لا ينبح أو يظهر علامة الإنزعاج لوجودهم.	– الفصيل فاقد لأمّه التي تغذيه⇦ دلّت الجملة على أنّ سبب هزال الفصيل يعود إلى فقدانه لأمّه ولهذا فهو غير حاصل على تغذية مناسبة تظهر على حالته الجسديّة، وذلك يعود إلى أنّها تُذبح فلا يجد الفصيل من يغذيه في فترة حاجته إلى التغذية وهو صغير.
– التركيب الرابع (لفظيّ ذهنيّ): الشاعر شخصٌ كريم ومضياف ⇦ فقد دلّت تنقّلات المعنى في التركيبين الكنائيّين على أنّ الشاعر أراد وصف نفسه بأنّه رجل مضياف وذلك الوصف يأتي من خلال ألفة كلبه للغرباء فكأنّهم يستقبلهم فهو متعوّد على رؤيتهم، وكذا هو يذبح إبله فلا تجد فصائلها من يغذيها في فترة حاجتها الى التغذية ولهذا تكون هزيلة ونحيلة بسبب كرمه الذي لا يمنعه عن ذبح أمهاتها على الرغم من حاجتها لها.	

ومثلما لاحظنا فإنّ الأمثلة السابقة أوردها الجرجانيّ للاستدلال على الكناية عن نفس الصفة، أمّا عن النوع الثاني وهو إثبات نسبة الصفة فقد أورد لها أمثلة أخرى، من أمثلة قول الشاعر زياد الأعجم في ممدوحه:

إنّ السمـاحة والـمروءة والـندى في قُبّة ضربت على ابن الحشرج

قال الجرجانيّ: ((أراد، كما لا يخفى، أن يُثبت هذه المعاني والأوصاف خلالاً للممدوح وضرائب فيه، فترك أن يصرّح فيقول: ((إنّ السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشرج، أو مقصورة عليه، أو مختّصة به))، وما شاكل ذلك ممّا هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح، فجعل كونها في القبّة المضروبة عليه، عبارة عن كونه فيه، وإشارة إليه، فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة، ولو أنّه أسقط هذه الواسطة من البين، لما كان إلا كلاماً غُفلاً، وحديثاً ساذجاً))[1]، فقد أراد الشاعر وصف ممدوحه بصفة وإثبات نسبتها إليه فكأنّها مقصورة عليه وحده، متلبّسة به ومشتملة عليه، فاستعمل هذا الإسلوب الكنائيّ لأنّه أوقع وأبلغ في التعبير عن اللفظ المراد الدلالة عليه من خلال تنقّلات المعنى، وبحسب ما هو وارد في الجدول الآتي:

1) دلائل الاعجاز: 307.

ترتيب التركيب	نوعها	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	إنّ السماحة والمروءة والندى في قُبّة ضربت على ابن الحشرج	التركيب مؤلّف من جملة إسميّة تشتمل على أسماء عدّة دلّت على أنّ السماحة والمروءة والكرم وهي سمات تدعو للإكبار والتجليل وضعت في قبّة وضُربت على الممدوح.
التركيب الثاني	معنويّ	إنّ السماحة والمروءة والندى في قُبّة ضربت على ابن الحشرج	التركيب مؤلّف من صفات جاءت بصيغة أسماء فدلّت على أنّ هذه الصفات ثابتة ولا تزول، هذه الصفات موضوعة في قبّة – وفيها إشارة إلى كونها موجودة في أعلى مقدار ممكن من الإرتفاع– وأنّها بنيت حول الممدوح وأحاطت به من كلّ جانب واشتملته.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	إنّ السماحة والمروءة والندى تلبّست ابن الحشرج واشتملت عليه	دلّت على أنّ هذه السمات اشتملت الممدوح كلّه وتلبّست به، وهو بقي محافظاً على ثباته، والسمات الجميلة هي التي جاءته واشتملت عليه.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	ابن الحشرج سمحٌ وذو مروءة وكريم	دلّت على أنّ الممدوح– ابن الحشرج– رجلٌ سمح وذو مروءة وكريم وأنّ هذه الصفات هي التي جاءته عفواً ولم يسعَ إليها؛ ولهذا فهي جاءت مكتملة وفي ذلك تحقيق للمبالغة التي أرادها الشاعر من المدح في أعلى درجة.

ويماثله في إثبات نسبة الصفة قول الشاعر الشنفرى يصف امرأة: يبيتُ بمنجاةٍ من اللوم بيتُها إذا ما بيوتٌ بالملامةِ حُلّتِ

فما حصل في البيت الشعريّ أنّ الشاعر ((... توصّل إلى نفي اللوم عنها وإبعادها عنه، بأن نفاه عن بيتها وباعد بينه وبينه، وكان مذهبه في ذلك مذهب ((زياد)) في التوصّل إلى جعل ((السماحة والمروءة والندى)) في ابن الحشرج، بأن جعلها في القبّة المضروبة عليه، وإنّما الفرق أنّ هذا ينفي، وذاك يُثبت، وذلك فرق لا في موضع الجمع، فهو لا يمنع أن يكونا من نصاب واحد))[1]، فقول الشنفرى يشابه قول زياد من حيث إنّه نسب الصفة لصاحبها لا على سبيل المباشرة وإنّما من خلال نسبتها إلى المكان الذي حلّ فيه فأحدث ذلك فرقاً في الشموليّة والتلبّس بصاحب الوصف، مع فارق أنّ الشاعر في بيت زياد أثبت نسبة الصفات إلى الممدوح، والشنفرى في بيته أراد نفي صفة اللوم عن المرأة التي تحدّث عنها، وفي هذا الأسلوب تكون المبالغة بالصفة أكثر من الوصف نفسه، ولكنّه مع ذلك يدخل في مجال إحداث إضافة معنويّة جديدة من خلال إبعاد التأويل.

ولو نظرنا إلى تنقّلات المعنى في هذا البيت الشعري لوجدناه جارٍ على وفق التراكيب الجمليّة الآتية:

ترتيب التركيب	نوعها	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	يبيتُ بمنجاةٍ من اللوم بيتُها إذا ما بيوتٌ بالملامةِ حُلّتِ	التركيب مؤلّف من مفردات عدّة دلّت على أنّ بيت هذه المرأة يبيت في منجاة من الملامة من قبل الآخرين، مع وجود بيوت لازمتها هذه الصفة.
التركيب الثاني	معنويّ	يبيتُ بمنجاةٍ من اللوم بيتُها إذا ما بيوتٌ بالملامةِ حُلّتِ	التركيب يستدعي إجراء مقارنة بين بيت هذه المرأة وبيت النساء الأخريات، فبيتها بعيد عن أن يمسّه أحد أو يشير إليه باللوم أو التعنيف حتّى في حين أنّ نساء أخريات توصف بيوتهنّ بهذه السمة.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	هي إمرأة بعيدة عن اللوم	دلّت على أنّ سمة البعد عن اللوم اشتملت هذه المرأة أيضاً فضلاً عن سبق تعلّق هذه السمة بالمكان الذي تعيش فيه، فسمة البعد عن اللوم شملت المرأة وتلبّست بها كلّها حتّى أصبحت جزءاً منها.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	هي إمرأة عفيفة	دلّت على أنّ المرأة التي مدحها الشاعر في بيته هي إمرأة عفيفة وشريفة، وأنّ هذه السمة إرتبطت بها نتيجة ارتباطها بطهارة بيتها وبعده عن الاتهام باللوم كونه محطّ أنظار المراقبين من محيطيه مثلما هو حال بيوت النساء الأخريات، فكأنّ العفّة تلبّست بها من تلبّس بيتها لها وإحاطته بها وحفظه وستره لها، وفي ذلك تحقيق للمبالغة في الصفة التي أرادها الشاعر من مدحه للمرأة.

1) دلائل الاعجاز: 310، 311.

- المثل:

يمثّل (المثل) واحداً من الأساليب البلاغيّة التي تخرج الخفيّ من المعاني إلى الجليّ من خلال امتزاج عناصره اللفظيّة ليعطينا صورة تخييليّة أخرى، لا يمكن إدراكها بانفصال عناصرها، فمعانيه لا تُدرك إلا بضرب من التأوّل، هذا التخييل رشّح المثل ليكون واحداً من التطبيقات التي يمكن توظيف مفهوم الخلافة اللفظيّة فيها بشكل واضح.

وقد استعان الجرجانيّ لتحليل ما جرى في (المثل) من انتقالات معنويّة بعدّة استدلالات، منها قول العرب: (أخذَ القوسُ باريها)، إذ قال: ((وذلك أنّ المعنى على وقوع الأخذ في موقعه ووجوده من أهله، فلست تشبّهه من حيث الأخذ نفسه وجنسه، ولكن من حيث الحكم الحاصل له بوقوعه من باري القوس على القوس))[1]، فالكلام لم يُقصد منه الأخذ للقوس من قبل صانعه على الحقيقة، وإنّما المراد منه تشبيه حال القوس مع باريها من حيث إنّه العارف بما يصلح حاله، ويوجّهه نحو هدفه بمن يستعين على أمر ما بأهل المعرفة والحذق فيه، ((... فإنّه لا يجوز أن يُقال إنّ القوس مستعار للخلافة على حدّ استعارة النور والشمس؛ لأجل أنّه لا يتصوّر أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد، وأن يُقال: ((هي قوس))، كما يقال: ((هي نور))، و((شمس))، وإنّما الشبه مؤلَّف لحال الخلافة مع القائم بها، من حال القوس مع الذي براها، وهو أنّ الباري للقوس أعرف بخيرها وشرّها، وأهدى إلى توتيرها وتصريفها))[2]، فكلام الجرجانيّ يبيّن أنّ الاسم- بطبيعة الحال- لا يقع مستعاراً إلا لما أخذ الشبه منه، كاستعارة النور للعلم، والشمس للوجه الجميل، والأسد للرجل الشجاع، بينما الشبه الواقع في الكلام لم يرد في لفظ واحد على الإنفراد حتّى يصح منّا أن نقول أنّ (القوس) هو لفظ مستعار على الإنفراد، وإنّما وقع الشبه من خلال الحكم الرابط بين حال القوس مع الذي براها، وهذا التركيب هو الذي أحال على المعنى الذي استدلّت به العرب على هذا المثل، فلمّا كانت الجملة المركّبة من إسناد لفظ إلى آخر هي الدالّة على المعنى المراد كان مجموع الكلام (مثل) بحسب ما تعارفت عليه العرب.

والاستدلال على المعنى المراد من المثل جاء من خلال تصوّر المعنى في الذهن وتخيّله، بعد حصول عدة انتقالات بدءاً من الكلام الأصليّ وانتهاءاً بالمعنى المراد، هذه الانتقالات يمثلها التركيب الجمليّ الأصليّ، والتركيب الجمليّ المعنويّ للوصول إلى ما يمثّلها من ألفاظ، ووفق التصوّر الآتي:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأول	لفظيّ	أخذَ القوسُ باريها	دلّت على الفعل المخصوص من الأخذ على الحقيقة.
التركيب الثاني	معنويّ	أخذَ القوسُ العارف بما يصلحها	دلّت على أنّ المراد من الجملة إعطاء صورة تشبيهيّة من خلال ترابط حال القوس مع باريها من حيث إنّه العارف بما يصلح حالها ويوجّهها نحو الخير أو الشرّ.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	استعن بأهل المعرفة لإصلاح الأمور	دلّت على الاستعانة بأهل المعرفة والحذق فيه لإصلاح أمر ما غير محدّد.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	استعن بأهل المعرفة وهم: (...) لإصلاح أمر: (...)	وتدلّ على تحديد أهل المعرفة والحذق من هم؟ مع تحديد الأمر الذي يعملون فيه على إصلاح الأمور.

ومعنى الجملة الرابعة من هذه الانتقالات لا يعتمد على جملة المثل فقط وإنّما على ما ورد في سياق الكلام أيضاً، ولاسيّما فيما يتقدّمه من جمل، يقول الجرجانيّ: ((واعلم أنّ ((المَثَل)) قد يُضرب بجمل لا بدّ فيها من أن يتقدّمها مذكور يكون مشبّهاً به، ولا يمكن حذف المشبّه به والاقتصار على ذكر المشبّه، ونقل الكلام إليه كأنّه صاحب الجملة، إلا أنّه مشبّه بمن صفته وحكمه مضمون تلك الجملة))[3]، فسياق الكلام هو الذي يوجب مجيء معنى المثل مرتبطاً بالمعنى المراد الدلالة عليه، فتحديد دلالة الإفادة من أهل المعرفة في إدارة الأمور إنّما يحددّها سياق الكلام السابق لورود المثل، كي تكتمل صورة التشبيه؛ ((وذاك لأنّ التشبيه المقصود منوط به مع

1) أسرار البلاغة: 106.
2) المصدر السابق: 258- 259.
3) أسرار البلاغة: 113.

غيره، وليس له شبه ينفرد به، على ما قدّمت لك من أنّ الشبه يجيء منتزعاً من مجموع جملة من الكلام))[1]، فالمثل وإن كان وارداً في جملة واحدة إلا أنّه لا يكتمل معناه إلا من خلال ارتباطه بالجمل السابقة له؛ وبذلك يكون المعنى منتزعاً من التراكيب جمليّة متعدّدة وليس من خلال جملة واحدة، لتعطينا في النهاية مفهوماً مختصراً وموجزاً يعبّر عمّا سبق.

ومن أمثلة ما وظّف فيها معنى المثل قول داود بن علي[2] حين خطب فقال: ((شكراً شكراً، إنّا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً، أظنّ عدوّ الله أن لن يُظفر به، ...فالآن عاد الأمر إلى نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، والآن قد أخذ القوس باريها، وعاد النبل إلى النزعة، ورجع الأمر إلى مستقرّه في أهل بيت نبيّكم، أهل بيت الرأفة والرحمة))[3]، فسياق الكلام يشير إلى أنّ الخطيب يتحدّث عن قوم خرجوا عن سلطة الخلافة، وأنّ كلامه معهم يشير إلى أنّه أعادهم إلى سلطة القانون بحدّ السيف، إذ لم يكن الغرض من هجومه عليهم غرضاً ايجابيّاً من استصلاح أراضيهم بحفر الأنهار، أو بناء البيوت المرتفعة لهم، وإنّما وصفهم وصفاً سلبيّاً بأنّهم (عدوّ الله)، رابطاً بين هذه الأمور جميعاً ودلالة المثل في قوله: (والآن أخذ القوس باريها)، فكذلك ((... الكائن على الأوصاف المعتبرة في الإمامة والجامع لها، يكون أهدى إلى توفية الخلافة حقّها، وأعرف بما يحفظ مصارفها عن الخلل، وأن يراعي في سياسة الخلق بالأمر والنهي التي هي المقصود منها ترتيباً ووزناً تقع به الأفعال مواقعها من الصواب، كما أنّ العارف بالقوس يراعي في تسوية جوانبها، وإقامة وترها، وكيفيّة نزعها ووضع السهم الموضع الخاصّ منها، ما يوجب في سهامه أن تصيب الأغراض، وتقرطس في الأهداف، وتقع في المقاتل، وتصيب شاكلة الرّمي))[4].

ومثل آخر يستدلّ به الجرجانيّ على هذا الفنّ البيانيّ وهو قول العرب: (ما زالَ يفتلُ في الذروةِ والغاربِ)، وذلك أنّ ((الشبه فيه مأخوذ ما بين الفتل وما تعدّى إليه من الذروة والغارب، ولو أفردته لم تجد بينه وبين ما يُضرب هذا الكلام مثلاً له، لأنّه يُضرب في الفعل أو القول يُصرف به الإنسان عن الامتناع إلى الإجابة، وعن الإباء عليك في مرادك، إلى موافقتك والمصير إلى ما تريد منه. وهذا لا يوجد في الفتل من حيث هو فتل، وإنّما يوجد في الفتل إذا وقع في الشّعر من ذروة البعير وغاربه))[5]، فالمستويات التي تنقّل فيها المثل وصولاً إلى المعنى النهائيّ المستدعي للفظ الذهنيّ تمثّله التراكيب الجمليّة الآتية:

ترتيب التركيب	نوعه	التركيب	تحليله
التركيب الأول	لفظيّ	ما زالَ يفتلُ في الذروةِ والغاربِ	دلّت على الفعل المخصوص من فتل ذروة البعير كي يطمئن ويستقرّ.
التركيب الثاني	معنويّ	ما زالَ يخادع البعير حتّى تمكّن منه	دلّت على أنّ المراد من الجملة إعطاء صورة للمشبّه به المركّب من ترابط حال الفتل لذروة البعير وغاربه كي يخادعه ويتمكّن منه.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	ما زال يخادع صاحبه حتّى تمكّن منه	دلّت على المخادعة والمماكرة التي تزيل الشخص عن رأيه.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	ما زال (فلانٌ) يخادع (فلاناً) حتّى أزاله عن رأيه: ()	وتدلّ على تحديد الشخص الخادع، والمخدوع، والرأي الذي خدعه فيه.

وهذه الجملة الأخيرة يتوصّل إليها من خلال سياق الجمل السابقة للمثل، فتحديد الخادع، والمخدوع، والرأي، يحتاج إلى سياق كلام كي يكشف عنه، مع ملاحظة الإنقطاع المعنويّ الحاصل بين الجملة الثانية والثالثة، حيث يكون المعنى بجملته عقليّاً، غير مستند إلى أصل لفظيّ يدعمه معناه فيه.

1) المصدر السابق: 258.
2) هو داود بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو سليمان، خطيب، وأحّد قادة الثورة العباسيّة ضدّ بني أميّة، هو عمّ السفّاح والمنصور، ولاه السفّاح إمارة الكوفة سنة 132ه، ثمّ عزله عنها، وولاه إمارة مكّة، واليمن، والطائف، واليمامة، فأقام في المدينة المنوّرة وفيها توفّي سنة ثلاث وثلاثين ومائة (ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبيّ: 5/ 445).
3) أسرار البلاغة: 258.
4) المصدر السابق: 259.
5) أسرار البلاغة: 106، 107.

- المجاز الموهم

يتحدّد المجاز الموهم عند الجرجانيّ بأنّه المجاز الحاصل في الكلام الذي يوهمك ظاهره بشيء يوجب حكماً، وحقيقته توهم شيئاً آخر توجب له حكماً آخر[1]، وتوجيه هذا النوع من المجاز يعتمد يعتمد العقل وتخيّل دلالة المعنى، ومن خلال هذا التخيّل يظهر مفهوم الخلافة اللفظيّة بشكل واضح، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾(يوسف/82)، وقد حلّل الجرجانيّ ما حصل في الآية بقوله: ((فالمضاف إليه اكتسى إعراب المضاف،...والأصل: (وسئل أهلَ القريةِ)، فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجرّ، والنصب فيها مجاز. وهكذا قولهم: (بنو فلان تطؤهم الطريق)، يريدون أهل الطريق، الرفع في ((الطريق)) مجاز، لأنّه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذي هو ((الأهل))، والذي يستحقه في أصله هو الجرّ))[2].

والتركيب الجمليّ الذي اعتمد عليه هذا النوع من المجاز جاء بالشكل الآتي:

ترتيب التراكيب	نوعها	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	وسئل القريةَ	دلّت على أنّ السؤال موجّه للقرية، وموقع (القرية) الإعرابيّ هو النصب.
التركيب الثاني	معنويّ	وسئل أنتَ القريةَ	دلّت على أنّ السؤال– من قبلك– موجّه للقريّة، وموقع (القرية) الإعرابيّ هو النصب.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	وسئل أنتَ أهلَ القريةِ	دلّت على أنّ السؤال موجّه – إلى أهل القرية، وهو أمر يستدعيه العقل؛ فمن غير المعقول أن يوجّه السؤال إلى شيء غير عاقل وننتظر منه إجابة، وموقع (القرية) الإعرابيّ هو الجرّ.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	وسئل أهلَ القريةِ	وهذه الجملة هي الصورة اللفظيّة التي تقابل الصورة المعنويّة الذهنيّة، وهي تمثّل مفهوم (الخلافة اللفظيّة).

فحالة النصب وما يتناسب معها من حركة الفتح للفظة (القرية) هي الصورة المجازيّة التي ظهرت فيها اللفظة في موضع المفعول به بدلاً من الموقع الإعرابيّ الذي كانت تحلّ فيه في الأصل وهو الجرّ بحرف الجرّ، وهذا التغيّر الذي طرأ على اللفظة يوهم حكماً في ظاهره، بينما حكم الكلام في الأصل يختلف عن ذلك، وهو ممّا كان سبباً في وقوع المجاز في الحركة.

وقد رفض الجرجانيّ ما وقع بين البلاغيّين من تفسير لهذه الآية، فهم يرون أنّ الكلام وقع فيه حذف للمضاف (أهل)، وحلّ محلّه المضاف إليه (القرية)، مستدلاً على ذلك بأدلّة تدعم رأيه، إذ يقول: ((ولا ينبغي أن يُقال: ((إنّ وجه المجاز في هذا، الحذف))، فإنّ الحذف إذا تجرّد عن تغيير حكم من أحكام ما بقي بعد الحذف لم يسمّ مجازاً، ألا ترى أنّك تقول: ((زيدٌ منطلقٌ وعمروٌ))، فتحذف الخبر، ثمّ لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنّه مجاز؟ وذلك لأنّه لم يؤدّ إلى تغيير حكم فيما بقي من الكلام))[3]، أي أنّ الكلام لا يصحّ أن يسمّى حذفاً إلا إذا حافظت الكلمات على موقعها الإعرابيّ قبل الحذف، وبقت على حالها بعده، وفي حال حصل تغيّر في الموقع الإعرابيّ فإنّ الحذف ينتفي ليكون انتقالاً في الموقع بين الحقيقة الأصليّة لمواقع الكلمات في الجملة وبين الموقع الذي انتقلت إليه مجازاً.

وما يعلّل الجرجانيّ به ما حصل فعلاً في الآية الكريمة هو أمر منطقيّ وقريب جداً من الصواب، وهو لأمر مثير للاستغراب أنه لم يتمّ اعتماد تحليل الجرجانيّ من وقوع المجاز في الآية مع هذا القرب من الصواب، واعتماد القول الذي يرى وقوع الحذف مع بُعدِه، وعلى الرغم من كمّ الأدلّة المنطقيّة التي يوردها الجرجانيّ لنفي القول بوقوع الحذف، وهي أدلّة كثيرة عنده [4].

ومثال آخر على مجاز الإيهام ما وقع في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(الشورى/ 11)، إذ يحلّل الجرجانيّ ما وقع في الآية من مجاز بقوله: ((إنّ الجرّ في ((المِثْل)) مجاز، لأنّ أصله النصب، والجرّ حكم عرض من أجل زيادة ((الكاف))، ولو كانوا إذ

1) ينظر: المصدر السابق: 416، 417.
1) أسرار البلاغة: 416.
3) ينظر: المصدر السابق: 416.
4) ينظر: أسرار البلاغة: 416- 420.

جعلوا ((الكاف)) مزيدة لم يُعملوها، لما كان لحديث المجاز سبيل على هذا الكلام))[1]، وتعليل عمل الكاف هنا يفسّره الجرجانيّ في حالة مشابهة، استدلّ بها في النصّ السابق من حيث عمل حروف العطف بدلاً من عاملها بالنيابة، ((... فإذا قلت: رأيتُ زيداً وعمراً، قام الواو مقام العامل فأغنى عن تكريره، فالعمل للفعل في الحقيقة، وهذه تعمل على سبيل الاتباع والنيابة، ولو كان مجراها مجرى الحروف العاملة لفظاً ومعنى لعملت عملاً مخصوصاً لا تعدل عنه، ولا تفتقر إلى متابعة ما قبلها كأنّ وأخواتها مثلاً))[2]، فمجيء خبر (ليس) على الأصل يكون موقعه النصب، ولا يأتي مجروراً عادة، أمّا أن يأتي مجروراً بالكاف فهو مخالف للأصل؛ ولهذا فُسِّر مجيء الكاف على أنّه حرف زائد، والصحيح أنّ عمل النيابة في الحروف يدخل ضمن باب المجاز الموهم لأنّه يعطي حكماً عقليّاً مخالفاً للحكم الأصليّ الذي يستوجبه الشكل الظاهريّ للكلام.

والترتيب الجمليّ الذي اعتمد عليه وقوع المجاز يأتي بالشكل الآتي:

ترتيب التراكيب	نوعها	التركيب	تحليله
التركيب الأوّل	لفظيّ	ليس كمثلِهِ شيءٌ	دلّت على نفي المثليّة عن الله سبحانه وتعالى، وموقع (مِثل) الإعرابيّ هو الجرّ.
التركيب الثاني	معنويّ	ليس كمثلِ اللهِ شيءٌ	دلّت على أنّ النفي للمثليّة هو نفيّ مطلق، ولفظ الجلالة أُضمر في الكلام السابق بالضمير العائد، فكشف عنه المعنى.
التركيب الثالث	معنويّ ذهنيّ	ليس مثلَ اللهِ شيءٌ	دلّت على أنّ الموقع الإعرابيّ للفظة (مثل) هو النصب لكونه اسم (ليس)، وظهر لفظ الجلالة الذي تمّ إضماره في الكلام الأصليّ.
التركيب الرابع	لفظيّ ذهنيّ	ليس مثلَهُ شيءٌ	وهذه الجملة هي الصورة اللفظيّة التي تقابل الصورة المعنويّة الذهنيّة السابقة، وهي تمثّل مفهوم الأصل للخلافة اللفظيّة الحاصلة في التركيب الأوّل.

فحركة الجرّ بسبب الموقع الإعرابيّ الذي حلّت فيه إنّما جاءت مجازاً عن الحركة الأصليّة (النصب) الناتجة عن كون اللفظ جاء اسماً لـ(ليس).

وهذا النوع من التركيب ربما يبدو مختلفاً عمّا سبق من تراكيب بيانيّة، ولكنّه يندرج ضمن مفهوم الوهم عند الجرجانيّ، وهو يتقارب إلى حدّ كبير مع الاستعارة في المفرد من حيث إنّ الأصل يمكن الرجوع إليه عبر انتقالة ذهنيّة سريعة بسبب عرف الاستعمال، ولكنّه مع ذلك يحتاج إلى التأويل لأنّه يحتاج إلى العقل والتفكير الذهنيّ كي نصل إليه.

وما استعرضناه جميعاً من ظواهر انطبق عليها مفهوم (الخلافة) اللفظيّة من خلال تنقّلات المعنى، بعضها توصّلنا إليه سريعاً عبر عمليّة ذهنيّة سريعة، وبعضها توصّلنا إليه بموجب عمليّة ذهنيّة بطيئة احتاجت إلى كدّ ذهن وتفكير وتدقيق، وفي الحالتين فإنّ العمليّة الذهنيّة حاصلة اعتماداً على التفكير العقليّ الموجب للتأويل، هذه العمليّة أوجبت أصلاً لفظيّاً وآخر خليفة له، وقد استعرضنا ما توصّلنا له من تطبيقات فيما سبق، ولكنّه يبقى مفهوماً قابلاً للتطبيق على كلّ الظواهر التي نتحصّل فيها على كلّ الشروط التي ذكرناها سابقاً في حدود المصطلح، وهذا هو سبب اعتمادنا القول بأنّ مصطلح (الخلافة) اللفظيّة هو مصطلح بلاغيّ مهمل؛ لأنّه لم يلق الاهتمام الكافي من قبل الدارسين الذين تلوا الجرجانيّ أو أتوا بعده، إذ لم نجده في كلّ المؤلّفات البلاغيّة التي جاءت بعد كتاب الجرجانيّ الذي ذكره فيه، وما فعلناه في البحث أنّنا أعدنا الحياة لهذا المصطلح علّنا نكون قد فسّرنا شيئاً ممّا طرحه الجرجانيّ في ميدان اللغة العربيّة عامّة، والبلاغة العربيّة خاصّة؛ كي يتمّ الإفادة منه لاحقاً، ويخرج من حبسه الذي بقي بقي طوال تلك الفترة الزمنيّة الطويلة.

1) المصدر السابق: 418.
2) المقتصد في شرح الايضاح: 89.

- نتائج البحث وخاتمته:

بعد هذه السياحة في التراث البلاغيّ، توصّلنا إلى جملة من النتائج التي تشكّل خاتمة مختصرة لما تضمّنه البحث، وهي كالآتي:

- يشكّل مصطلح (الخلافة) اللفظيّة في التراث البلاغيّ واحداً من المصطلحات المهملة؛ إذ لم يستحصل شيوع الاستعمال المطلوب من الدارسين أو المؤلّفين – قديماً وحديثاً– على الرغم من وروده في كتاب تأسيسيّ مهمّ مثل كتاب (أسرار البلاغة).
- المصطلح – بموجب ما استدللنا عليه من مواضع وروده ومن تطبيقات تنطبق على مفهومه– يقدّم تفسيراً جديداً لقضيّة ما بعد (المعنى ومعنى المعنى) التي أسّس لها الجرجانيّ وسار عليها البلاغيّون من بعده، وقضيّة البحث في هذا المصطلح تعدّ استكمالاً لما أسّسه الجرجانيّ من مقاييس وقواعد بلاغيّة تحاول أن تحدّ موضوعاتها بحدود قابلة للتطبيق.
- مفهوم (الخلافة) اللفظيّة ينبني على المقدّمات التي وضعها الجرجانيّ حول اللفظ وعلاقته بالمعنى، ومفهوم المعنى النفسيّ، وفي حال رفض فكرة عدّه مصطلحاً فإنّ المفهوم لا يمكن رفضه بأيّ حال من الأحوال لأنّه يقدّم تفسيراً جديداً ومُحتملاً لقضايا بلاغيّة عقليّة مهمّة.
- مفهوم (الخلافة) اللفظيّة لا يقع إلا في لطائف المعاني التي هي من خبايا العقل، إذ تحتاج الى تجسيم يشكّل كيفيّتها، وأوصاف تحدّد روحيّتها وهذه أمور لا يمكن أن تُدرك إلا من خلال العقل، ومن خلال مفهوم (الخلافة) يتمّ تحويل ما يحوكه الذهن من معان لطيفة إلى ألفاظ معبّرة عن لطافتها وروحيّتها.
- الظواهر التطبيقيّة للمصطلح ممّا ذكرناه في البحث تشكّل نموذجاً تطبيقيّاً لما ورد عند الجرجانيّ ولكن مفهوم هذا المصطلح قابل للانطباق على كلّ ما يندرج تحت حدود مفاهيمه؛ لذا يكون من الممكن استكمال دراسات وتطبيقات أخرى للمصطلح من قبل الدارسين – فيما لو رغبوا في ذلك– لأنّ مجال الدراسة في هذا المصطلح لا زال بكراً.
- مجال دراسة المصطلح ومفهومه في التراث اللغويّ يبقى مفتوحاً ومتاحاً، ونحن قد ركّزنا في هذا البحث على التراث البلاغيّ، ولكن تراث الجرجانيّ لم يكن يؤسّس لعلم البلاغة فقط بل كان تراثاً يؤسّس لمناهج الدراسات اللغويّة عامّة، إذا من المهم بحث هذا المصطلح في التراث اللغويّ إذ ربّما نستحصل منظومة تفكيريّة متكاملة لما وضعنا أسسه – هنا– في هذا البحث.
- يحتاج التراث البلاغيّ إلى إعادة قراءة، ولا سيّما القراءة الدقيقة التي تعيد بعث المصطلحات التي لم تمتّد إليها أيدي الباحثين، أو لم يُسلّط عليها الضوء في دراساتهم وأبحاثهم كي يمكن الإفادة منها في تفسير الظواهر أو القضايا البلاغيّة بشكل جديد، بدلاً من الاكتفاء باجترار المعلومات من دون اعتماد تدقيقها وتحليلها.

- مصادر البحث ومراجعه:

- أساس البلاغة:أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت538هـ)، ط1، دار إحياء التراث العربيّ– بيروت، 1422هـ– 2001م.
- أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت471هـ أو 474هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط1، دار المدني– جدّة، 1412هـ– 1991م.
- البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين: عبد القاهر الجرجانيّ وابن سنان الخفاجيّ، د. عبد العاطي غريب علي علام، دار الجيل، ط1، بيروت، 1993م.
- بناء الجملة العربية، د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، 2003م.
- التفكير النقدي عند العرب،أسسه وتطوّره إلى القرن السادس(مشروع قراءة)،حمّادي صمّود،دار الكتاب الجديد المتحدة،ليبيا، 2010م.
- حاشية الصبّان على شرح الأشمونيّ على ألفيّة ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني: محمد بن علي الصبّان، تحقيق: طه عبد الرؤوف، المكتبة التوقيفيّة، (د. ت).

- دلائل الاعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجانيّ (ت471 أو 474هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004م.
-ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: حمدو طمّاس، ط2، دار المعرفة، بيروت، 2005م.
- ديوان لبيد بن ربيعة، شرح الطوسي، تحقيق: د. حنّا نصر، ط1، دار الكتاب العربيّ، 1993م.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ، مؤسسة الرسالة، 2001م.
-العوامل المئة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانيّ (ت 471هـ أو 474هـ)، عنى به: أنور بن أبي بكر الشيخيّ الداغستاني، ط1، دار المنهاج للنشر والتوزيع، المملكة العربيّة السعوديّة، 1430هـ- 2009م.
- الكافية في النحو، أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (ت646هـ)، شرح الشيخ محمد بن الحسن الاستراباذي (ت686هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985م.
- كتاب العين:أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ(ت 175هـ)،ط1، دار إحياء التراث العربيّ- بيروت، 1421- 2001م.
- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (ت 180هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار التاريخ، بيروت، (د.ت).
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلاميّ، طهران، 1404هـ.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت626هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، ط1، مطبعة دار الرسالة- بغداد، 1982م.
- مفردات ألفاظ القرآن:الراغب الأصفهاني (توفي في حدود 425هـ)، ط4، دار القلم - دمشق، الدار الشامية- بيروت، 1425هـ.
- المقتصد في شرح الايضاح: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجانيّ (ت 471هـ أو 474هـ)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهوريّة العراقيّة، 1982م.
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت286هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- موسوعة المصطلح النحويّ، من النشأة إلى الاستقرار: د. يوحنا مرزا الخامس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م.
- النحو الوافي، عباس حسن، ط5، دار المعارف، مصر، 1975م.
- **الرسائل الأكاديميّة:**
- المصطلح النحوي عند ابن خالويه (دراسة نحوية موازنة): صباح حسين محمد، رسالة ماجستير مقدّمة الى مجلس كليّة الآداب في جامعة الموصل، 1997م.